

الذوق واللياقة

لكتبها

إسلام محمود زربال

ويليه

رسالة إلى أخي المتكبر

دار الإفتاء

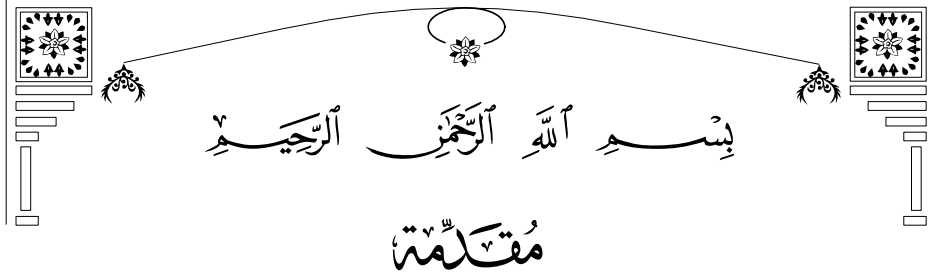
الذوق واللياقة

ويليه

رسالة إلى أخي المتكبر

كتبه

إسلام محمود درباله



الذوق واللياقة تسمية حادثة، ومفهومٌ معاصر، قد يقصد به الأدب والأخلاق أحياناً، وقد يقصد به ما يزيد عن الأخلاق والآداب، فبين الأدب والأخلاق والذوق واللياقة تداخلٌ وعمومٌ وخصوصٌ.

والذوق من التذوق، وهو: أن يتذوق الإنسان فعله ومقاله وسائر تصرفاته، واللياقة مأخوذة مما يليق أو لا يليق، ويقال هذا شيء لائق - أي: سائغ ومتناسب أو غير لائق -.

وقد أذكر هنا بعض ما هو من الآداب والأخلاق الأساسية، وقد أذكر ما هو من الذوق واللياقة من الأمور الزائدة على الآداب والأخلاق الأساسية، فهو من المكملات أو من دقائق الآداب.

وقد يكون لما أسميه ذوقاً ولياقةً دليلٌ واضحٌ وصريحٌ من الكتاب والسنة، وقد يكون مستند ذلك العادات الجارية المعتمدة، فالإسلام لم يأت بهدم العادات التي لا تخالف الكتاب والسنة؛ بل جاء بإقرار مكارم الأخلاق التي كانت في الجاهلية، وإقرار العادات الحميدة التي سبقت الإسلام.

بل في العبادات جاء الإسلام بإقرار بعض ما هو من شرع من قبلنا.

وللأسف فإننا نجد اليوم من يضرب بالعادة والتقاليد عرض الحائط، إذا لم يجد نصاً واضحاً صريحاً تدرج تحته أو تستند إليه، أو قد لا يصل فقهه إلى إلحاق فرع بأصل تدرج تحته هذه العادات أو التقاليد.

فمثلاً: ما الذي يمنع من أن تقول لمن هو أكبر سنّاً أو في مكانة اجتماعية عالية: «حضرتك»، أو حتى من باب تأليف القلوب.

أو أن تقول: يا «أستاذ فلان»، أو «يا عم فلان».

كل هذه الألفاظ قد تجد لبعضها دليلاً تدرج تحته، وقد لا تجد، ولكنك تجد لها ما تستأنس به من آثار الصحابة والتابعين، أو ما تدرج تحته من القواعد الكلية للدين.

ورد عن النبي ﷺ أنه قال للأَنْصار: «قوموا إلى سيدكم»^(١)، يقصد سعد بن معاذ.

وورد عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها: «أمرنا أن ننزل الناس منازلهم».

وورد من القواعد الكلية احترام الكبير، ودليلها: «ليس منّا من لم يوقر كبيرنا، ويعرف لعالمنا حقّه»^(٢).

ونجد من بعض من لا يعبأ بالعادة والتقاليد التي لا تخالف الشرع ويهدرها كلية ويضرب بها عرض الحائط؛ لأنها لم يرد فيها نص من كتاب أو سنة، فيورث في نفوس الناس بغضاً، لا لشيء إلا أنه يجد في نفسه نفرة من

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) رواه أحمد في «المسند»، وحسنه الشيخ الألباني في «صحيح الترغيب والترهيب».

العادات والتقاليد التي فيها ما هو فاسد أو مخالف للشرع؛ لكنه يضرب بها كلها عُرض الحائط، حسنها وفاسدها على السواء.

وقلّ أن تجد عادة حسنة إلا ولها دليلٌ تدرج تحته، أو قاعدة كلية شرعية معتبرة، بل من قواعد أهل العلم في علم القواعد الفقهية قاعدة: العادة محكمة.

المقصود: أن بعض الناس قد يضربون بالعادات القويمة، والتي لا تعارض التدين أو تعارض صريح الدين، ويقعون في صراعات مع المجتمع هم في غناء عنها؛ بل قد ينفرون الناس منهم، فديننا قد جاء بنصوص واضحة من الكتاب والسنة، وجاء بقواعد كلية، وأوامر شرعية، وجاء باحترام شرع من قبلنا ما لم يعارض شرعنا، فمن القواعد الفقهية: العادة مُحَكَّمَة، ولا ضرر ولا ضرار، والضرر يزال؛ بل من مقاصد الشريعة: حفظ العقل، والمال، والنفس، والدين، والعرض.

فهذه دعوة للتمسك بأداب الإسلام، والعادات المجتمعية التي لا تعارض شريعة رب البرية، ودعوة إلى تصفية القلوب، وتزكية النفوس، وتطهير الأخلاق، ومراعاة العادات القويمة غير المخالفة للشرعية السنية.

كيف لا والآداب والأخلاق تكاد تمثل قدرًا كبيرًا من ديننا، وفي الحديث: «إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق»^(١)، وقد صنف علماء الإسلام كمًّا كبيرًا من المؤلفات التي تشغل حيزًا عريضًا من تراثنا

(١) رواه أحمد في «المسند»، والبخاري في «الأدب المفرد»، وحسنه الألباني في «الصحيحة».

الإسلامي، ومن ذلك: «الآداب الشرعية» - للإمام ابن مفلح الحنبلي، «منظومة الآداب» - للإمام ابن عبد القوي، وشرحها «غذاء الألباب شرح منظومة الآداب» للإمام السفاريني، «أدب الدنيا والدين» - للإمام الماوردي، «مكارم الأخلاق ومعاليها» - للخرائطي، «روضة العقلاء ونزهة الفضلاء» - للإمام ابن حبان، «أخلاق العلماء» للإمام الآجري، «الذريعة إلى مكارم الشريعة» - للإمام الراغب الأصفهاني، فضائل الأعمال - للإمام عبد الغني المقدسي، «رياض الصالحين» - للإمام النووي، «جامع بيان العلم وفضله» - للإمام ابن عبد البر، «الجامع في آداب الشيخ والسامع» - للخطيب البغدادي، «مختصر منهاج القاصدين» - للإمام ابن قدامة المقدسي، «منهاج القاصدين» - للإمام ابن الجوزي.

وغيرها كثير من كتب تراثنا الإسلامي العظيم، فضلاً عن كتب المعاصرين في الآداب والأخلاق أحيلك عليها؛ لتنهل من معينها العذب، لتكن رسالتي هذه التي بين يديك كالمنبه والموقظة إلى أهمية الآداب والأخلاق في حياة المسلمين.

والله العظيم أسأل أن ينفع بها، وأن يجعلها ذخراً يوم لا ينفع مالٌ ولا بنون.

كتبه

إسلام محمود كربالة



إكرام الضيف

يذكر بعض الأفاضل فيقول ذهبت إلى زميل لي في الجامعة أزوره بعد انقطاع سنين وكان لم يتناول طعام الغداء فأحضر غذائه وأخذ يأكل أمامي، ولم يقل لي تفضل كل أو هل تغديت.

فأقول أين هذا المسكين من أمر النبي ﷺ بإطعام الطعام، وأين هو من أمره ﷺ بإكرام الضيف.

هذا الموقف حصل حقيقة ومن رجل ينتسب إلى العلم بدين الله .
وكان يسعه إذا لم يكن الطعام يكفي أن يأكل مستتراً عن الضيف .

السلام بأطراف أصابع اليد

من عادة بعض السفهاء أو بعض المتكبرين إذا صافح بعض الناس يسلم من طرف أصابعه كما يقال وكأنه يسلم بقرف .

فهذا الذي يسلم من أطراف الأصابع ليته ما سلم ، بل إن فعله هذا قد يفسر بالتكبر أو القرف أعاذنا الله وإياكم من ذلك .

والمفترض أن يسلم بكامل راحته برحابة وبشر بل كان النبي ﷺ لا ينزع يده حتى يكون المسلم من ينزع يده .

التكبر حتى وأنت بين يديّ الله

تصور أنك تأتي تقف في الصف لتصلي بين يدي الله فتلتصق رجلك في رجل من إلى جوارك فإذا هو يدفعك بجانب يده حتى لا تلتصق رجلك في رجله .

وكانك قدر من الأقدار أعادنا الله وإياكم من السفه والكبر ، وانظر كيف يصل الأمر بهذا المسكين أن يفعل ذلك وهو يقف بين يدي جبار السماوات والأرض وفي صلاة .

وكيف خالف أوامر رسول الله ﷺ من تسوية الصفوف وسد الفرج في الصف .

إنهاء مكالمة الهاتف

إذا اتصل بك أحد والحديث جاري فلا تقل له طيب سلام عليكم وتنهي أنت المكالمة ولكن لتجاري أنت المتصل في كلامه حتى يكون هو الذي ينهي المكالمة لأنه هو المتصل .

أما أن تقطع أنت الحديث وتنهي المكالمة وهو لم يمه ما أراد فهذا من قلة الذوق وعدم اللياقة ويمكن أن نستدل لذلك بحديث كان رسول الله ﷺ : «إذا استقبله الرجل فصافحه لا ينزع يده من يده حتى يكون الرجل الذي ينزع» رواه الترمذي وابن ماجه وصححه الشيخ الألباني .

نهر الأطفال

المنبغي أن يتلطف الكبير مع الصغير ويعطف عليه وفي الحديث «ليس منا من لم يرحم صغيرنا» أخرجه أحمد والترمذي وقال الترمذي: حسن صحيح.

وروى البخاري عن أنس: أنه مر على صبيان فسلم عليهم وقال: كان النبي يفعله.

وبعض الناس إذا رأى طفلاً فكأنما رأى شيطاناً.

الفحص والتقصي

لا ينبغي السؤال عن خصوصيات الأشخاص بشكل مباشر مما قد يسبب لهم إحراجاً أو يضطرهم إلى الإخبار عما يكرهون أن يخبروا به من الأمور الخاصة ومن ذلك:

- هل شقتك تملك أم إيجار؟

- كم راتبك؟

- ما درجة تعليم والدك؟

وهكذا فحص وتقصي في الخصوصيات كل هذا خلاف الذوق واللياقة.

لن أخذ برأيك

يحكى بعض الأفاضل فيقول: كنت في زيارة صديق لي فإذا به يستشيرني في مسألة في عمله هل أفعل ذلك أم لا ، وبعد أن تناقشنا ووضحت له رأبي أفاجأ به يقول أنا في النهاية لن أخذ برأيك وكان يسعه أن يأخذ وجهة نظر من يستشيره دون أن يقذف في وجهه بهذه الكلمة التي تنبئ عن عدم اهتمام أو تسفيه لرأي المستشار أو تقليل من شأنه . . . أنا لن أخذ برأيك .

اعترف وقل الحقيقة

يحكى أحد الأفاضل فيقول: أُننى عليّ في مجلس وعلى علمي فقلت: أنا لا أعرف شيئاً -من باب التواضع- فإذا بأحد الحاضرين يندفع ويقول: «أيوا اعترف وقل الحقيقة» .

الإقبال بالوجه

ليس من اللياقة أن تتحدث إلى شخص أو تسلم عليه وأنت غير مقبل عليه بالكلية بوجهك .

وفي السنة المطهرة أن النبي ﷺ كان إذا تحدث إلى أحد أقبل عليه بوجهه . أما الذي يتحدث إلى شخص ويصرف وجهه عنه فهو أشبه بأفعال المتكبرين .

الشخص بالراس

وكذلك التحدث إلى الناس وأنت شاخص برأسك إلى أعلى رافع أنفك، أشبه بأفعال المتكبرين وقد يفعله البعض حياءً من النظر في أعين الناس فيختلف الأمر بحسب قرائنه .

التحدث إلى الآخرين وأنت نائم أو متكئ

ليس من الذوق واللياقة أن تتحدث إلى الآخرين وأنت نائم وهم وقوف أو وأنت متكئ لاسيما إذا كان من تحدثه هو أكبر منك سنًا . ومن ذلك أن يمد الشخص رجله وهو في حضور غيره أو من هم أكبر منه أو حتى من أقرانه إلا من كان له عذر من مرض شديد أو علة ملحة .

الاستئذان ممن يحدثك

عندما تكون تتحدث إلى أحد ويناديك آخر فلا تترك الأول حتى تستأذن من الذي كنت تتحدث معه .

الاستئذان ممن تجالسه

عندما تكون جالسًا مع مجموعة من الأشخاص أو شخص واحد فإذا أردت أن تقوم لفعل شيء أو للانصراف أو دخول دورة المياه أو حتى

لتأتي بشراب للضيف الذي عندك فالذوق واللياقة أن تستأذن قبل أن تقوم.

الهدية

إذا أهدى لك أحد هدية فتقبلها وكافته إن استطعت فإن لم تجد ما تكافته به فادع له لكن بعض من لا ذوق عنده ولا لياقة إذا أهدى له طعاماً مثلاً قال لا شكرًا أنا لا أحب هذا الطعام أو أهدى له ثوب قال لا يعجبني هذا الثوب وإنما كان يسعه أن يأخذ الطعام أو الثوب ويتصدق به أو يهديه إلى غيره فهذا الفعل أكثر ذوقًا وأكثر لياقة.

وكذلك تجد أحدهم لو أهديت له ثوبًا وقابلك بعد فترة قال لك لقد فسد الثوب وتقطعت الخياطة، وما ذنب المُهدي في هذا أم أنها هدية مع ضمان الصيانة.

* من الأفضل أن يكون للهدية مناسبة من المناسبات التي تعارف عليها الناس في مجتمعك.

* اجعلها سلاحك لتلين القلوب القاسية.

* إذا كنت رادًا على هدية سابقة فلا تجعلها مثلها أو بنفس قيمتها ومحتواها.

* راعي ظروف المُهدي إليه وطاقته، ولا تنس أنه سيردها في يوم ما، لذلك اجعلها متناسبة مع ظروفه المادية بحيث لا تؤثر في ماديته وتخرجه.

* ودائمًا لا تنتظر للهدية رد أو مقابل، لأنها عنوان محبة وليست دينًا.

* لا ترفض الهدية طالما أنه ليس هناك ما يمنعها شرعاً أو عرفاً، فإن ذلك مما يكسر نفس المهدي ويحزنه .

* اجعل هديتك دائماً ذات فائدة للمهدي إليه . فأحدهم لا يستطيع أن يشتري شيئاً أساسياً للمنزل، فلا تهديه أنت تحفة أو لوحة جدارية، بل أهده شيئاً هاماً لمنزله، أو شيئاً ترى أنه بحاجة إليه في حياته .

* قال لي أحدهم عندما أهديته هدية: لو أنك أحضرت بدلاً منها كذا؟ فكسر نفسي وأشعرني بأن هديتي لا قيمة لها عنده . وقال لي آخر: جزاك الله خيراً، لقد كلفت على نفسك بهذه الهدية الرائعة، ولا أعرف كيف أشكرك عليها . . رأيت كيف يكون منطق بعض الناس كأنه الداء، وكيف يكون منطق بعضهم كأنه البلسم والدواء!؟

تأكل ولا شبعان؟!

إذا جاءك ضيف وكنت تريد إكرامه بطعام فلا تقل له تأكل ولا شبعان؟ وإنما إن كان عندك طعام بدون تكلف فقدمه وإلا فلا تقل تأكل ولا شبعان ولك في نبي الله إبراهيم أسوة حسنة: ﴿فَمَا لَبِثَ أَنْ جَاءَ بِعِجْلٍ حَنِيذٍ﴾ .

وضع اليد في الجيب وأنت تتحدث مع الآخرين

ليس من الذوق واللياقة أن تتحدث إلى شخص وأنت تضع يدك في جيب البنطلون فهذا ليس من الذوق ولا من اللياقة، وإنما تقف وقفة معتدلة ليس فيها ما ينم عن تعالي أو كبر أو عدم مبالاة .

الضحك في الجنازة

ليس من الذوق أو اللياقة أن تضحك في الجنازة أو تتحدث في أمور عامة، أو تعقد الصداقات أو تثير المناقشات الصاخبة بما يتنافى وجمال الموقف ومشاطرة أهل الميت الحزن، ومواساتهم.

* في بعض الجنازات تجد من يتضحكون وقد يتبادلون النكات أثناء تشييع الجنازة، وقد تجد بعضهم يبتسم ويضحك في أثناء تجهيز الميت.

* وشهدت أحدهم في مجلس عزاء في بيت الميت وهو يثير المناقشات إلى حد ارتفاع الأصوات والتشاغل عما جاء لأجله من المواساة فهذه الأفعال كلها من قلة الذوق واللياقة.

* وأحدهم قلت له إنا لله وإنا إليه راجعون فقال لي لقد عُمر المتوفى حتى جاوز الثمانين، فما علاقة السن بهيبة الوفاة وجلالة الحزن.

* وأحدهم توفيت جدته وهم يدفنونها وهو يتحدث حول أمور زواجه وحفل الزفاف والهدايا التي سيأتي بها أصدقائه في هذه المناسبة.

وقفت يوماً على الطريق انتظر مقدم جنازة من بلد مجاور، وبجوارى عدد من الناس ينتظرون لنفس الغرض، منهم مجموعة من الشباب قد انخرطوا في الضحك، فقلت لهم: يا شباب أجتتم تواسون أهل الميت أم جتتم تهنتونهم على موت ابنهم؟! والله إن لم يكن لكم في الموت عبرة ووقفة مع النفس فعظم الله أجركم في نفوسكم وقلوبكم... فسكتوا لفترة من الوقت ثم عادوا لسيرتهم الأولى من الضحك وكأن شيئاً ما كان.

وفي يوم من الأيام وعندما كنا نتبع إحدى الجناز قائلني أحد المعارف عند المقابر فجعل يحتفي بي ويسألني عن حالي ويظهر لي الترحيب، وأنا أرد عليه في ذلك كله باقتضاب والضيق باد عليّ، والناس في شغل وهذا في شغل، والناس في وادٍ وهذا في وادٍ آخر لا يبالي من ذلك.

سد الشارع بالسيارة

ليس من الذوق واللياقة أن تسد الشارع بسيارتك وتركها واقفة بحيث لا يستطيع الناس الدخول أو الخروج، وكذلك سد مداخل البيوت والعمارات أو مداخل الجراجات.

وكذلك ليس من الذوق واللياقة أن توقف سيارتك بحيث تمنع سيارة غيرك من الخروج.

وقد تأخر الناس عن أشغالهم أو المرضى الذي يحتاجون إلى إغاثة.

الاتصال في أوقات غير مناسبة

ليس من الذوق واللياقة الاتصال في أوقات غير مناسبة كوقت النوم أو وقت القيلولة أو في وقت متأخر من الليل، فكل هذا فيه إزعاج ومن الإزعاج أيضًا وعدم الذوق واللياقة أن تكثر الأخت الاتصال على أختها أو صديقتها في أوقات تواجد الزوج في البيت فإن ذلك يوغر صدره، ويشتت شمل البيت وقد يسبب الخصومات بين الزوج وزوجته.

فبعض النساء يتصلن في كل ساعة مرة بأختها أو صديقتها وكأنها جالسة مع الزوج وزوجته في المنزل بل إن بعضهن تتحدث إلى صديقتها أكثر مما يتحدث الزوج إلى زوجته . فليكن الاتصال باقتصاد واقتصار على الضروري وفي الأوقات المناسبة .

استخدام أشياء الغير بصورة غير لائقة

من الناس من يستعمل أشياء غيره بصورة غير مناسبة أو لائقة ولو كانت هذه الأشياء له لما استعملها بهذه الصورة .

مثال ذلك أن تطلب من صديق لك جواله لتجري مكالمة لأنك لا تمتلك الرصيد وتمتد هذه المكالمة حتى ترهق رصيد صاحبك وتعيد له الجوال لأن الرصيد نفذ .

أو أن تستعير سيارة صديقك وتعيدها وقد ملأتها بالصددمات ونفذ بنزينها دون أن تشعر بالخرج .

ومن ذلك أيضًا أن تأخذ جوال أو جهاز الحاسب الخاص بصديق لك فتقلب فيه وتفتح ملفاته دون مراعاة لحرمة أو خصوصية .

إزعاج الآخرين باستخدام أشياءك الخاصة

ومن ذلك استخدام السيارة أو الجوال صحيح أنت حر في استخدام ما تملك لكن حريتك تنتهي عند حرية الآخرين .

ومن ذلك استخدام السيارة مثلاً في التفحيط أو التخميس فهذا إضافة إلى ما فيه من إهلاك للسيارة فإن فيه إزعاج للآخرين بالصوت المرتفع وإفزع لهم على ممتلكاتهم فيمكن أن تصطدم سيارتك بسيارات الآخرين الواقفة أو المتحركة .

وهذا من إفزع المسلمين وفعلٌ لا يجوز أصلاً .

أو تجد أحدهم يقف في وسط المكاتب الهادئة ويتحدث في جواله بصوت مرتفع ولفترة طويلة دون مراعاة لمشاعر الآخرين .

استخدام المتعلقات الشخصية الخاصة بالآخرين

ومن ذلك استخدام المنشفة الشخصية أو استخدام فرشاة الأسنان أو غيرها من الأدوات الشخصية الخاصة بالآخرين سواء كان ذلك بإذنهم أو غير إذنهم لما لهذه الأشياء من الخصوصية، وإمكانية نقل الأمراض من خلالها .

الاختلاف في الرأي لا يفسد للود قضية

تحدثت مع شخصين في قضية هامة من قضايا عصرنا، وانتهينا إلى تمسك كل طرف برأيه، فقلت: يا أخوان اختلافنا في الرأي لا يفسد للود قضية، فربت أحدهما على يدي وقال: هذا شيء طبيعي، وقال الآخر في جفوة وعصبية: هذا إذا كان في الرأي، أي أنه أراد أن يجعلها مشكلة اختلاف كبيرة .

الدفع بالناس إلى الكذب

لا تضيق على محدثك سُبَله، فتضطره للكذب من أجل أن يخرج من الحرج، أو كما يقول دايل كارينجي: (لا تحشر الهر في الزاوية) حتى لا ينقلب نمرًا أو أسدًا ضارياً، ولن تسلم حينها من شره أو أذاه؟

الاعتذار

وكذلك لا تضطر غيرك للاعتذار، واقبل عذره إن اعتذر حتى لا تسوقه للكذب الذي يرضيك به، فتكون قد أذيت نفسك بأن اضطرته للكذب، وأذيته بأن جعلته كذاباً.

النصح والنقد

وإذا انتقدك أحد فلتكن روحك رياضية واقبل نصحه، ووضح له وجهة نظرك واجتهادك في هذا الأمر إن كنت مقتنعاً به، ولا تكن أهوج في ردك، فإن أوضح لك خطأ وجهة نظرك فلا تكابر في قبول الحق، وإن لم تقتنع فلا تعيب عليه أنه نصحك أو انتقدك.

الستر على الآخرين

وإن نصحت أحداً ولم يقبل نصحك فلا تنشر أمره وتفضح سره وتكلم عنه كل أحد، فكل إنسان مُخَيَّرٌ في قبول النصح أو رفضه، اللهم إلا بعض

الحالات الخاصة في المجاهرين وأمثالهم، وهذه تحتاج أيضًا لحكمة وعقل وروية .

حفظ السر

احفظ أسرار الناس ولو كانوا أعداءك، واحذر أن تفشي لأحدهم سرًا إذا استفذك أو أغضبك، أو حتى إذا أفشى لك هو سرًا، فليس من المفترض أن تنحط إذا انحط الآخرون، ومن أفشى أسرار الناس أفشى الله سره وفضحه . أما عن شرك فإذا أردت ألا يُفشى فلا يخرج من صدرك ولا تحدث به نفسك، وإياك ثم إياك وائتمان النساء على الأسرار فإنها فاكهة مجالسهن . وأعلم أنه ندر في هذا الزمان من تجده يحفظ الأسرار، وهؤلاء هم الصفوة فكن منهم .

لا تفسر كلام الآخرين كما يحلوا لك

تجاذبت أطراف الحديث مع أحد الأصدقاء، وتكلمت بوجهة نظري في الموضوع الذي طرحه، فأخذ مقطوعة من كلامي وفسرها من عنده وكأن ذلك تفسيري لها، فقلت: أبدًا أنا لم أقصد ما تقول، بل أقصد كذا وكذا . . ولكنني لاحظت أنه يردد نفس الكلام في كل موقف يجمعنا مع أي أحد، ويردده بذات تفسيره ناسبًا الكلام لي، وذلك رغم أنني لم أفسره هكذا، ورغم تنبيهي له على ما أقصد، إلا أنه ظل يكرر نفس الكلام . فقررت أنني في كل مجلس يجلس فيه ويكرر نفس الكلام أن اعتبر أنه لا يتكلم ولا أعطي كلامه اهتمام ولا أبدي له في مواضعه أي

رأي ولا أشاركه حديثه في أي موضوع، واعتبر أن كل ما يتحدث فيه غير ذي أهمية، وكنت إذا تحدث في أي موضوع انشغلت عنه بأي شيء، وما هي إلا مرات قليلة حتى شعر بمدى خطأه وانتهى عنه.

والحقيقة أن هذا نقص يجب أن يتنزه عنه أهل الأدب والذوق.

انتقاء الألفاظ

قديمًا قالوا الملافظ سعد، حكى بعض الأفاضل قال: كان لدينا في العائلة طفل مريض، وتقررت له عملية جراحية دقيقة وخطيرة، وكنا نعيش في حالة من الحزن والاضطراب الشديد، فقابلني شخص أعرفه وسألني عن حالته، فقلت بخير والحمد لله، فاستفسر مني عن طبيعة حالته، فأخبرته بها، فقال: هذه حالة خطيرة، لا أظن أن هذا الطفل يعيش. ورغم ما رأى على وجهي من استياء لكلامه، إلا أنه ظل يرشقني بهذه الكلمات التي أشبه ما تكون بالصخور العواتي وكأنه شخص منزوع القلب، حتى تمنيت أني ما لقيته ولا عرفته.

إياك والتثبيط

لا تثبط دائمًا من عزائم الناس، ولا تكن صاحب تكذيب ومعارضة لكل خبر سواء كان عندك به علم أم كنت تجهله. واعلم أن التثبيط هو من الإضرار بالناس بل ومن الإضرار بالمجتمع كله.

علمت شخصًا على هذه الشاكلة، فكنت إذا حادثته بالخبر - حتى عن

نفسى - أجد له فيه رأي وتعليق وكلام وتأويل وتكذيب ، حتى أن بعض الأحداث والأخبار أكون على يقين بأنه لا يعرف عنها شيء فإذا تحدثت بها بدأ في التعليق بأسلوب يحطم المعنويات والعزائم والهمم .

وشخص آخر كان إذا علم بأن شخصاً مُقدم على مشروع أو عمل ما ، ظل يثبط فيه ويحبط من عزيمته ، وبدأ برأيه في المشروع الذي يراه غير مُجد - كما هو الحال في جميع المشاريع عنده - وأنه يعرف من جربه وخسره فيه خسارة شديدة .

من أدب المعاملات المالية

جاءني زائراً وطلب مني اقراضه مبلغاً يحتاجه لضرورة حسب ما أخبرني ، فأخبرته بأن المبلغ موجود ولكني سأحتاجه خلال أسبوعين ، فقال بأنه لا يحتاجه أكثر من هذه المدة . ومر شهر ولم أحتج المبلغ خلاله ، ثم جاءت المناسبة التي كنت أحتفظ لها بالمبلغ ، فقابلته وطلبت منه أن يجهز المبلغ خلال يوم أو يومين . وكانت مفاجأة إذ رد عليّ ردّاً خالياً من الذوق وعقب بأن ظروفه لا تسمح أبداً خلال الفترة القادمة ، وصدمني حقاً بهذا الرد المخالف لكل الوعود ، وبعد فترة طويلة تعدت العام استطعت أن استخلص المبلغ بالتدريج وذلك بعد أن أخلف المواعيد كثيراً ، ثم جاءني في يوم معتذر يطلب مني أن يبقي المبلغ لفترة أخرى ، فرفضت ذلك بكل قوة ، ولقنته درساً في أصول وآداب المعاملات المالية بعدما أشعرني أنني أتسول منه ولست كأني أنا صاحب الحق . وكانت

المفاجأة أنه ناولني المبلغ ناقص، ووعدني بعد أيام أن يأتيني بالمبلغ المتبقي، وكان عليّ أن اتجرع هذه المواقف الناقصة بكل أسى، وفي الموعد ذهبت إليه فلم أجده وهنا تركت له الرسالة الثانية أو الدرس الثاني في أخلاقيات المعاملات المالية وكانت الرسالة هذه المرة قاسية رغم أنها كانت مهذبة ومختصرة، وبعد ساعات قليلة جاءني يشكو الظروف التي يمر بها في عمله والتي جعلته يخلف مواعيده في السداد، فقلت له: اعلم أنك طالما تسير على هذا الأسلوب في معاملاتك المالية وطالما أنك غير منضبط ماليًا فلن تنفك هذه الأزمات والضوائق أن تواجهك.

الوفاء بالوعد وسداد الدين

ذكر بعض الأفاضل قال: اقترض مني أحد الأصدقاء مبلغًا وفي الموعد المحدد طرق بابي وشكرني وسلمني المبلغ، ثم مرت أيام وجاء يطلب مني نفس المبلغ إن كان يمكنني الاستغناء عنه، فقلت: ولماذا لم تتركه معك حتى يتيسر لك رده؟ فقال: أولاً أنا وعدتك بموعد وما كنت لا خلف الميعاد، فربما تكون قد رتبت له ترتيبًا معينًا، وثانيًا فإنه كان لا بد أن أسلمك المبلغ في يدك حتى لا تُجبر على الموافقة لكون المبلغ ما زال معي. ولكم أعجبني هذا الموقف الشريف، وخصوصًا عندما علمت أنه اقترض المبلغ من أجل أن يفني بموعده، فلما وافقت على اقراضه له ثانية أخذه ورده إلى صاحبه.

هل جزاء الإحسان إلا الإحسان

كان هناك رجل سخي كريم يحب أن يفك ضوائق الناس من حوله، أو لنقل كان يحب ذلك، نعم فقد تغيرت وجهة نظره لأن هذا السخاء والكرم لم يقابل إلا بالجحود والمماطلة، حتى رأيته يمر بأكبر ضائقة في حياته يقترض من هنا وهناك، رغم أن له مبالغ تفوق أضعاف ما يحتاج إليه عند من كان كريمًا وشهيمًا معهم ومن سارع لفك ضوائقهم ومساعدتهم وقت الحاجة، ثم قابلو ذلك بجحود ومماطلة وكذب ونفاق، ولم يتحرك أحد منهم لرد ما اقترضه رغم أن معظمهم من المتيسرين حتى أن أحدهم عمل شيئًا كمالياً لا فائدة له تكلف ما يقارب عشرة أضعاف ما عليه من دين لهذا الشخص . . . وقلت لذلك الرجل يومًا أبشرك -إن شاء الله- بخلف خير ويُسّر بعد عُسر فإن الكريم لا يُضام، ولكنني أظنك ستفكر ألف مرة بعد ذلك في معاملاتك المالية. فرد عليّ قائلاً: الحقيقة أنني سأفكر بعد ذلك في كل معاملاتني مع الناس، مالية وغير مالية!!

إياك والمماطلة

يحكي بعضهم فيقول: كان لي مبلغًا عند أحد الناس، وحن أجله، فطالبته به لما لم يبادر هو بذلك، فواعدني مرة ومرتين وثلاث، وفي المرة الرابعة رفضت هذه المواعيد الكاذبة وطالبتة بتسديد المبلغ في

الحال أو انصرف ولا أعود له أبدًا، فأخرج المبلغ من جيبه وناوله لي وقال في برود شديد: لا أعرف لماذا هذه العجلة؟

* شخص قرر أن يستقر في بلده، ولذلك أرسل إلى صديقيه اللذين يشارك أحدهما في المقاولات ويشارك الآخر في تجارته، ليصنفا حقوقه، وكان ذلك قبل عودته بشهور حتى يتسنى لهما التصفية على مهل وبدون أن يؤثر على أعمالهما. وعاد الرجل من سفره ليبدأ في الإعداد لمشروع خاص به، فأما شريك المقاولات فسلمه رأس المال أرجى الأرباح لحين التصفية السنوية، وأما الآخر فلم يستطع أن يستخلص منه حتى رأس المال، وماطله وواعده وأخلفه، وقطع له المبلغ على دفعات بصورة لا يسعه معها الاستفادة منه في عمل جيد.

الضامن

فوجئ بالشرطة تطلبه وكانت جريمته أنه لم يسدد أقساط السيارة التي عليه. . الأمر شبه طبيعي بالنسبة لك. . ولكن الحقيقة أنه ليس صاحب السيارة بل هو الضامن فيها بحكم الوظيفة والراتب، وبينما ينعم عديم الذوق بالسيارة فإن الضامن الكريم يؤدي في أقسام الشرطة، ويضطر لسداد الأقساط من جيبه، ليقرر أن لا يكون عونًا لأحد بعد ذلك أبدًا، أما الآخر فلم يبالي بأي شيء على الإطلاق، بل حتى لم يكلف خاطره بالاعتذار!!

اهتم بالجميع

في الكثير من المناسبات نرى اهتمام أصحاب المناسبة مُنصبًا على شخصيات من الحاضرين بعينها، وربما كانوا من أصحاب الجاه أو المكانة، أو في منزلة اجتماعية رفيعة، أو كبارًا أو علماء أو ذوي شأن ما. ونحن في الحقيقة لا نرفض ذلك، ولكننا نرفض تجاهل الآخرين، فالكل قد حضر يؤدي إليك واجبًا إما مهنيًا أو موسيقيًا، وتجاهلهم يُعد أسلوبًا غير لائق على الإطلاق، بينما أن الترحيب بهم يشعرهم بالألفة والمودة والقرب والاهتمام ويزيد في حب الناس لك واهتمامهم بك.

متخصص في الحوادث

واحذر أن تكون صاحب خبر سوء، فُتُعرف به، مثال ذلك أن تكون أول من ينقل خبر حادث أو موت أو مصيبة فيتشأم بك الناس ويكرهوا حديثك ويستعيذوا بالله عند قدومك أو دخولك، وإذا كان لا بد وأن تكون ناقل لخبر سوء فكن ممهدًا له بما هو أخف منه، وتدرج في ذلك ما استطعت إلى ذلك سبيلًا، ومهما كانت درجة تصبر من تنقل له الخبر فإياك وأن تصدمه به مباشرة.

مراعاة مشاعر الآخرين

كثيرًا ما نرى منظرًا غير لائق بالمرة، حيث يكون في القرية أو البلد

أو الحي من أصيب بمصيبة موت أو غيره، ثم نرى بعد يوم أو أكثر من يقوم من جيرانه برفع الزينات والأبواق والأناشيد ابتهاجاً بعرس أو مناسبة ما، غير مبالٍ أو مراعٍ لشعور وآم جيرانه، ولا يفهم من ذلك أننا نقول بأن يمتنع الناس عن الأفراح والأعراس وغيرها، كلا، بل القصد أن نؤجل هذه المناسبة السعيدة قليلاً، أسبوعين أو أكثر، حسب إمكانية التأجيل، حتى تطيب النفوس، ويا حبذا لو ضيقنا نطاق الحفل بعد ذلك، أو أقمناه في مكان آخر، وكذلك لو استأذناهم في ذلك، فسوف يكون لذلك في نفوسهم أكبر الأثر وأطيبه، وهذا من أقل حقوق جيرانك عليك.

مواساة المرضى ورفع الحالة المعنوية للمريض

* لا تذكر عنده الموت ولا النار، ولا قصص الموت أو حوادثه أو شيء مما تنفر منه النفس.

* نقطة هامة يجب أن تعرفها، وهي أن تحسن الحالة النفسية يقهر أعتى الأمراض بإذن الله. فركز على رفع معنويات المريض.

* لا تظهر التألم أو الشفقة عليه حتى لا ييأس ويقنط ويظن أن حالته شديدة السوء، فيزداد مرضاً.

المساهمة في تكاليف العلاج

* اعتاد أهل مصر على عادة حسنة عند زيارة المرضى، وهي وضع مبلغاً من المال مع دعوة بالشفاء تحت وسادة المريض أو بجواره، وهي في

الحقيقة عادة جميلة تنم عن مدى التعاون والذوق في آن واحد، لأن أهل المريض بحاجة لما يعينهم على تكاليف ونفقة التداوي والعلاج. وتختلف العادة من بيئة لبيئة ومن فئة لأخرى.

الطبيب والمريض

* إذا كنت طبيباً فاجعل لألفاظك ميزاناً دقيقاً، لأن كلام الناس كلهم في واد وكلامك أنت في واد آخر. فمن الأطباء من تنزل كلماتهم على المرضى كأنها برد وسلام فيشفى بإذن الله بلا دواء، وتزول العلة بلا علاج. ومنهم - أعاذنا الله - من تنزل كلماتهم كالحميم، فيزداد المريض حسرة وعلّة، فينتقل من سوء إلى أسوأ ومن بلاء إلى أعظم.

لا تتدخل في ما لا يعينك

إن بعض الناس بتدخلهم فيما لا يعينهم يتسببون في كثير من الحرج للناس. * تقدم أحدهم نحو العريس أثناء الحفل وقال له: إن ملابسك غير متناسقة، فتسبب للرجل في غم شديد في يوم زفافه، أو ليلة العمر كما يقولون. ولو احتفظ هذا العديم الذوق برأيه لنفسه وعلم أنه لولا اختلاف الأذواق لبارت السلع، لو علم ذلك وفعل هذا لكان في ذلك كل الخير، ولكن هذه شخصيات عُدت الذوق والأدب، وحق للقائل أن يقول: أقل عليهم ماتماً وعويلاً.

* ذكر بعض الأفاضل فقال: أحد الشباب كان يجهز عرضاً على جهاز

الكمبيوتر ليقوم بتقديمه في إحدى الاحتفالات الهامة، فدخلت عليه وهو يعمل فيه فاهتممت بمشاهدة فقراته وأظهرت فرحًا وسرورًا، وهنأته على هذا البرنامج الرائع، ورأيت السرور في وجهه بشدة فسألني عن تقديري النسبي للبرنامج، ورغم أنه في الحقيقة لا يتعدى نسبة ٣٠% إلا أنني قدرته له ٨٠% فاستبشر وفرح، وفي اليوم التالي وجدته قد طور فيه تطويرات رائعة جدًا، ولم أكن أتوقعها، وطلب مني تقديره، فقلت له الآن نستطيع أن نعتبرك مبدعًا وندخلك في دائرة الامتياز الحقيقي، فشكرني كثيرًا على تشجيعي له. وكانت المفاجأة الحقيقية في الحفل إذ رأيت فيه ما لم أراه من قبل من الإبداع والابتكار الذي أوصله بالفعل لدرجة الامتياز، واستطعت في خلال أسبوع أن أصنع منه مبتكرًا ولو أنني بخلت عليه بالتشجيع لكنت سببًا في ركوده وثباته، بل وتأخره... وإلى هذا اليوم ما زال هذا الشاب يستبشر بدخولي عليه، ويستشيرني في كل شيء ويحب أن يسمع مني أي شيء.

كسب القلوب

في إحدى حفلات توزيع جوائز مسابقة للأطفال، لاحظت أن الجوائز ذات قيمة عالية، ورغم ذلك حُرم عدد كبير من الأطفال من الفوز بأي جائزة، ولو أن المنظمين خصموا عشرة جنيهاً -أو ريالاً- فقط من كل جائزة وقدموا بها لعبة لكل طفل حرموه من الفوز، لكان لهذا معنى آخر عند هؤلاء الأطفال وذويهم... إننا نبحث عن كسب القلوب... وهذه هي رسالة الذوق الكبرى.

إظهار الفرح

بعض الناس يسيرون في حفلات الزواج وكأنهم يودعون جنازة، ولا أدري لماذا لا يترك هؤلاء أحزانهم في بيوتهم أو يعتكفون إلى جوارها هناك، وليتركوا الآخرين يفرحوا فلا ذنب لهم في سوداوية هؤلاء ونكدهم.

الالتزام بالمواعيد

في إحدى حفلات الزواج دُعي مجموعة من الناس من بلد آخر، ونبه عليهم الداعي بأن الموعد في الساعة الثالثة ظهرًا، وكان نظام المنطقة أن يتناول الضيوف الغداء قبل الحفل الذي يبدأ بعد صلاة العصر. وتأخرت هذه المجموعة حتى قبيل المغرب، وانشغل بهم الداعون، واضطر أحد إخوان العريس لأن يأخذهم إلى أحد المطاعم في مدينة قريبة لتقديم وجبة الغداء أو العشاء، لأن طعام الضيوف كان قد انتهى حسب نظام المنطقة ومواعيدها. ولو أنهم التزموا بالموعد المحدد لهم لما وضعوا أصحاب الدعوة في هذا المأزق وشغلوهم عن حفلهم وعريسهم ومشاعلهم.

من آداب الطريق

لا تستوقف أحدًا في الشارع أو الطريق إلا لضرورة، وإذا كان فأوجز، وخصوصًا إذا كان برفقته أو برفقتك أحد. وإذا كنت تسير مع غيرك لقضاء حاجة لأحدكما فحاول ألا تستوقف أحدًا، وإذا استوقفك أحد فاعتذر له،

وكن على ذلك حتى تقضي حاجته أو حاجتك ، ولا تتعود طول الوقوف والكلام في الشارع فإن هذا مما يعيب الحازم الفطن .

من آداب التاجر المسلم

دخل أحدهم إلى محل أقمشة وعرض عليه البائع بعض الأنواع التي لم تعجبه ، فأراد الانصراف ، ولكن البائع صاح فيه وسبه وتطاول عليه لأنه لم يشتري بعد ما عرض عليه كل هذه الأنواع ، فهل هذا تاجر؟ بالطبع لا ، إنما هو متكالب على الدنيا ، فاشل ، لا يمكن أن يكون يوماً من الأيام ناجحاً ، لأن النجاح بريء من عديمي الأخلاق .

لا تكن من الثقلاء

من قصص الثقلاء التي ذكرها بعض الفضلاء :

* زارني شخص في غير موعد زيارة ثم تناول قلامة الأظافر فقص أظافره وهي تتطاير على الفراش ووسط الكتب والحاجات ، ثم وضعها وانتهت زيارته وانصرف في لا مبالاة عجيبة .

* وآخر تناول مقص صغير من على مكتبي ثم أخذ يعبث به في جرح في قدمه . . وآخر تمخط في المنديل ثم وضعه على مكتبي وانصرف .

* وآخر إذا زارني أسارع لجمع أي شيء من أمامه لأن كل ما يقع تحت يديه فإن مصيره التلف وخصوصاً الكتب .

* وأخر أرسل يستأذني في أن ينزل عليّ ضيفاً لمدة ثلاثة شهور، فأخبرته بأنني لا يمكنني استقباله هذه المدة، وفي الليلة التالية وجدت الباب يدق وقد جاء ومعه حقائبه مضيفاً نفسه رغماً عني .

* واستضفت شخصاً لفترة، فلم يكن من خبر في البيت خلال هذه الفترة إلا ووجدت كل الناس تعرفه .

* ونزل عليّ آخر فكلفني فوق طاقتي وأرهقني بمتطلباته، ثم فوق ذلك لم يترك شيئاً إلا وتدخل فيه سواء كان ذلك في عملي أو في حياتي، حتى عند خروجي من المنزل لا يمل من سؤالي: هل ستخرج؟ وأين ستذهب؟ هل ستتأخر؟ ومتى ستعود؟ وتخليلوا أنني لو خرجت ألف مرة في اليوم فإنه لا ينسى مرة أن يسألني هذه الأسئلة الثقيلة، هذا إلى جانب رده على تلفوناتي وإجراءه هذه التحقيقات مع كل متصل حتى لم يبق أحد من معارفي إلا واستفسر مني عن هذا الشخص الذي يرد على التليفونات فأسارع بالاعتذار دون أن أعرف ما جرى لأنني لم أصبح في حاجة بمعرفته فقد حفظته عن ظهر قلب .

* وأعرف صديقاً لي كان يسكن هو وأسرته في شقة مكونة من غرفتين نزل عليه أحد أصدقاءه ومعه زوجته وأبناءه وأم زوجته في ضيافة استمرت لمدة ثلاثة شهور، تخليلوا هذا!!! مع أن صديقه هذا رجل ميسور الحال ووضعته الاقصادي أفضل منه عشرات المرات .

* ونزل عليّ شخص فكان يأخذ التليفون إلى غرفته ويظل يجري اتصالاته طوال الليل حتى أنني نمت يوماً وهو ما زال يتحدث واستيقظت بعد حوالي

الساعتين وهو ما زال يتحدث ، ورغم أن هذه المكالمات كانت لمدن بعيدة إلا أنني حمدت الله أنها لم تكن دولية ، فقد كفاني أن الفاتورة عن هذه المدة فقد أزهدت نصف راتبي .

* فرض أحد الأشخاص نفسه عليّ وشاركني في سكني ، وكنت احتمله لكونه لم يكن يجد عملاً ، فلم افرض عليه أي التزامات مادية ، وهو لم يعرض أي مشاركة لا في الإيجارات ولا الفواتير والالتزامات الأخرى ، والحقيقة أنني كنت أعذره لأنه لا يجد ما يعرضه ولذلك كنت أشعره أن الأمر عادي جداً وأنا أخوة يجب أن نحتمل بعضنا في الشدائد . وبعد فترة فتح الله عليه ووسع له في رزقه ، ولكنه ظل على ما هو عليه وانتهت رحلته في الغربة وعاد إلى بلده وهو كما هو ، ورجع إليّ من جديد واتبع نفس الأسلوب ، نعم اتبعه لثلاث سنوات ، وهو لا يكلف نفسه بالمشاركة في أي شيء على الإطلاق ، بل تخيلوا أنه لم يقدم لي الشكر ولا مرة واحدة خلال هذه السنوات الثلاث !!

من آداب الزيارة

* إذا كنت حاضراً من مكان بعيد فحاول الاتصال قبل خروجك من البيت ، وإن كنت من نفس المكان فليس هناك داع للاتصال طالما أن هناك موعد مسبق ، ولكن يمكن التأكيد عليه ، وأما في حالة عدم وجود موعد مسبق فيفضل الاتصال -إن أمكن- والاستئذان في الزيارة ، لأنه ربما كان الشخص مشغولاً أو عنده ما يمنع من استقبالك ، فإذا شعرت بذلك فأجل الزيارة حتى وإن ألح عليك أو أبدى لك استعداداه للزيارة ،

لأن بعض الناس يمنعهم حياؤهم من الاعتذار عن استقبال الضيوف حتى وإن كان ذلك سبباً في ترك أعمالهم أو التأخر عنها .

* اصطحب معك هدية لأطفاله أو هدية لصاحب البيت أو أي شيء لائق ، وخصوصاً إذا كنت قادماً لدعوى ، أو قادماً من سفر بعيد أو أن زيارتك ستطول لأكثر من يوم .

* عند وصولك لمكان الزيارة فكن وقوراً واحتفظ بهيبتك وأحفظ لمضيفك هيئته ولا تكن صاحب جلبه ولا ترفع صوتك عند الباب ولا في البيت ولا أثناء الحديث .

* قبل أن تدق الباب لا تجري أي اتصالات هاتفية -عن طريق الهاتف المحمول- ولا تدخل البيت أو تدق الباب أثناء إجراء المكالمات ففي ذلك دليل على عدم اهتمامك بالزيارة ، ويفضل إغلاقه لبعض الوقت حتى ينتهي الاستقبال بينك وبين صديقك أو مضيفك . وأثناء الزيارة لا تجري أي مكالمات يمكن تأجيلها .

* لا تتدخل فيما لا يعينك ، ولا تبدأ زيارتك بالهندسة في البيت فتقول : كان ينبغي أن يكون حجم هذا البيت كذا ، ووضع غرفه كذا وأن يوضع هذا هنا وذلك هناك ، وأن تتغير الأحجام ولا بد من الحديقة . . مالك أنت ، إنهم راضون عن هذا وسعداء به ، ثم أنك حضرت زائراً ولم تحضر مهندساً ، ثم لماذا لا تحترم أذواق الناس في حياتهم الخاصة ، أليس لكل إنسان ذوقه الذي يرضيه ويسعده؟ أم تظن كل الناس على هواك؟!

* قال الأبشيهي : ومن آداب الضيف : أن لا يسأل صاحب المنزل عن

شيء سوى القبلة، وموضع قضاء الحاجة - إن احتاج لذلك - وأن لا يتطلع إلى ناحية الحريم، وأن لا يخالفه إذا أجلسه في مكان أكرمه به، وأن لا يمتنع من غسل يديه، وإذا رأى صاحب المنزل قد تحرك بحركة فلا يمنعه منها، أي إذا رآه قد أرسل في شراء شيء معين فلا يحلف عليه ألا يفعل فربما لم يكن بالبيت شيء يضيفه به فيوقعه في الحرج.

* كن لطيف المجلس، ولا تتأذى من أطفال صاحب البيت أو من تصرفاتهم أو من شيء معين في البيت، فإن كان هذا الشيء مما يستدعي التأذي فلا يكن تأذيك ظاهرًا وأجل الحديث فيه لوقت لاحق وكن حكيماً عندما تتحدث عنه ولا تخبر به أحد.

* للبيوت أسرار فلا تحاول الاطلاع عليها وإن علمت منها شيء فكأنك ما علمته ولا دريته وتجاهله وأحذر أن تخبر به أحد، وخصوصاً زوجته لأن النساء أبعد خلق الله عن حفظ الأسرار، ومن هتك لمسلم سرًا هتك الله أسرارها.

* احترم وجهات النظر والمبادئ الخاصة بمضيفك، وإن كانت على خلاف وجهات نظرك ومبادئك فلا تتطرق لها ولا تذكرها بسوء حتى لا تهينه.

* لا تصطحب الأطفال في الزيارات والضيافات وخصوصاً إذا كنت تعلم أن أطفالك مشاغبون أو يشيرون المشاكل، وكذلك إذا كان مضيفك ممن يحبون الهدوء أو لم يكن لديهم أطفال.

* لا تستأثر بالحديث على مدار الوقت، ولا تجعل للحديث عن رحلتك

في الوصول إليه نصيب الأسد، ويادر بالسؤال عن مضيفك وأحواله، وأبناءه، وليكن سؤالك سؤال اطمئنان وليس سؤال استقصاء.

* إذا كان وقت وصولك متأخر فلا تبادر بطلب النوم والراحة، واجعل مضيفك هو الذي يعرض عليك هذا مع إبداء رغبتك في طول الحديث معه لاشتياقك إليه وحبك للحديث معه.

* وافق مضيفك فيما يقدمه لك أو يدعوك إليه من أمور كتغيير ملابسك -إذا كنت ستبيت عنده- أو تناول الطعام أو المشروبات، ولا تكن كثير الاعتذار عن كل شيء.

* نم في المكان الذي يذهب بك إليه ولا تفرض عليه أن يغيره لأي سبب من الأسباب، لأنه اختار لك أكثر الأماكن مناسبة في البيت وهذا يسعده فلماذا لا تشعره بأنك سعيد بما يسعده؟!

* لا تطل الزيارة قدر الإمكان، فكلما قصرت زيارتك كلما أحب الناس قدومك وسُروا بزيارتك، وقصر الزيارة مما يجعلك ضيفاً مرغوب فيه، وذلك على العكس من الضيف الثقيل الذي يتمنى الجميع نزوحه ويكرهون نزوله.

* إذا كنت تعزم الزيارة لأكثر من يوم ووجدت أن ظروف البيت والمكان لا تتناسب مع إطالة الزيارة فحاول تقصير الزيارة ولو لأقل من يوم، ثم لا تذكر لمضيفك هذه الأسباب حتى لا تصيبه بالحرج. ومن الأسباب التي تجعلك تعدل عن أطالة مدة الزيارة أن يكون حجم البيت أو عدد الغرف لا يتسع لأكثر من أهل البيت، أو تكون الفترة فترة امتحانات وفي

البيت من يؤدي هذه الامتحانات، أو علمت أن صاحب البيت يخرج لعلمه لفترات طويلة، وغيرها مما يستتجه كل لبيب فطن.

* لا تصطحب معك أحداً من غير أن تستأذن صاحب البيت، ولا تفرض عليه شخصاً أو ضيفاً، وإذا كانت زيارتك ستطول فلا تستأذنه على الإطلاق في مرافقة أي شخص آخر.

* لا تستعجل صاحب البيت بالأكل وتشكو له الجوع ظناً منك أن في هذا بسط لمكارم الأخلاق، فالحقيقة أن هذا مما لا يليق بأهل الذوق.

* لا ترهق صاحب البيت بمتطلباتك وحاجاتك.

* لا تستخدم تليفون المنزل إلا لضرورة، ولا تصطحبه معك إلى غرفتك، ولا تجر منه المكالمات الدولية إطلاقاً سواء لضرورة أو لغير ضرورة.

* لا تثر له المشاكل في منطقته أو بيته أو بلده.

* إذا - لا قدر الله - صار لمضيفك مشكلة أو مصيبة فكن كأنك صاحب المصيبة ولا تتعامل وقتها كضيف بل تعامل كأنك من أهل البيت وتصرف بحكمة ولا تتخلى عنه حتى تنجلي غمته ويكشف الله عنه مصيبته، وإن لم تفعل ذلك فلست والله من أهل الكرم ولا النخوة والمروءة.

* اشكر مضيفك على الزيارة وعلى ما بذله من جهد ومعروف، وأشعره بمدى رضاك عن هذه الزيارة.

* اتصل عليه بعد وصولك وطمأنه وأعد الشكر، واسأله عن أخباره وأخبار أسرته.

من آداب الطعام

أحدهم كان يخرج قطع الطعام من فمه ثم ينظر فيها ويقلبها ، وأخيراً يضعها أمامنا على المائدة أثناء الأكل ، ولما حاولت أن أنبهه بطريقة غير مباشرة قال لي : أنت مثالي أكثر من اللازم .

وأخر كان ينظف أسنانه بمؤخرة الملعقة بعد الانتهاء من الطعام والجميع جلوس على المائدة ويفعل كما يفعل السابق من النظر والتدقيق فيما تخرجه الملعقة ثم يضعه على المائدة .

وأما التجشؤ فلا أحدثك بخبره لأنه على كثرة ما يأتيه الناس على الطعام فإنهم لا يبالون به ، وقد نهى رسول الله ﷺ عن التجشؤ ، وقد عدوه أيضاً من خوارم المروءة على الطعام . (التجشؤ هو خروج الصوت من المعدة ، وهو ما يسميه البعض بالترع أو التكرع ، وهو صوت بغيض يصيب الآكل عند سماعه بالقرف والتقرز والرغبة في التقيؤ) .

وبعض الناس عندما يأكل تجده يمد يده في كل اتجاه كالإخطبوط محاولاً أن يسيطر على المائدة كأنما لم يأكل في حياته أبداً .

من آداب العمل

ذكر بعض الأفاضل فقال : كنت أعمل في شركة ودعاني صاحب الشركة لحضور غداء عمل ، وكان من بين الحضور صاحب شركة صديق لصاحب شركتنا ، فقال لي ونحن على الغداء ، أريدك أن تأتي لتعمل معي في شركتي

وهذا على مسمع ومرأى من صاحب الشركة التي أعمل بها ، فما كان مني إلا أن بهت ولم أجد جواباً أجيبه به ، وبلغ بي الإحراج قمته من صاحب الشركة التي كنت أعمل بها . فليس من الذوق واللياقة مثل هذا العرض ، بل فيه إفساد للعلاقة بين الموظف وصاحب العمل الذي يعمل فيه ، وإذهابٌ للود في النفوس بين الموظف وصاحب الشركة ، وكذلك إذهابٌ للود بين صاحب الشركة الأولى والثانية .

أدب الاستفتاء

كنت في مجلس أحد كبار العلماء فجاءه مستفتي فسأله ، فأجابه بجواب لم يعجب المستفتي ورفع صوته وأخذ يحسبن ويغلي ويزبد ، فما كان من الشيخ إلا أن قال له اذكر الله ، اذكر الله ، فينبغي للمستفتي أن يتحلى بالأدب والأخلاق الفاضلة ، ولا يفعل ما يشعر بعدم تقبله للفتوى ، وإن كان يريد الاستفهام أو الاستفسار عن شيء في الفتوى فليكن ذلك بأدب واحترام وتوقيرٍ للمفتي .

رجلٌ آخر استفتى في مسألة فاجابه المفتي بما لم يكن على هواه فما كان من المستفتي إلا أن قال للمفتي إذا كنت لا تعرف فلا تفتي ، يعني أنه يعترض على الكلام وينتقض من المفتي ، فأين الأدب والذوق واللياقة في هذا ، وكان يسعه أن يقول جزاك الله خيراً وينصرف ثم يعمل بفتواه أولاً يعمل .



التدخين

لا شك أن التدخين أمرٌ محرم وقد تتابعت فتاوى العلماء على حرمة وبيان خطورة أضراره وتجد بعض الناس إضافة إلى حرمة التدخين يزيدون البله طيناً بأن يدخنوا في الأماكن العامة، والأماكن المغلقة كسيارة الأجرة مثلاً أو في المصعد، أو في مجلس مغلق، وكذلك التدخين في وجود الأطفال الصغار فهذا خطرٌ كبيرٌ على الأطفال بل تجد بعضهم قد يأخذ نفساً من السيجارة، ثم ينفث الدخان في وجه أحد الحاضرين، أو ينفض رماد السيجارة على أثاث البيت وفراشه.

وكذلك تدخين الصغير أمام الكبار ليس من الذوق واللياقة إضافة إلى المجاهرة بالمعصية فهو لم يحترم الكبير، أو تجد من يدخن أمام والده أو والدته، وما أشبه ذلك من التصرفات التي تنم كلها عن نقص في الذوق واللياقة.



المراجع

- الأداب الشرعية - لابن مفلح .
- الذوق وفن التعامل مع الناس - خالد السيد عبد العال .
- مختصر منهاج القاصدين - لابن قدامة .



فهرس الموضوعات

٥ مقدمة
٩ إكرام الضيف
٩ السلام بأطراف أصابع اليد
١٠ التكبر حتى وأنت بين يديّ الله
١٠ إنهاء مكالمة الهاتف
١١ نهر الأطفال
١١ الفحص والتقصي
١٢ لن أخذ برأيك
١٢ اعترف وقل الحقيقة
١٢ الإقبال بالوجه
١٣ الشخوص بالرأس
١٣ التحدث إلى الآخرين وأنت نائم أو متكئ
١٣ الاستئذان ممن يحدثك
١٣ الاستئذان ممن تجالسه
١٤ الهدية
١٥ تأكل ولا شبعان؟!
١٥ وضع اليد في الجيب وأنت تتحدث مع الآخرين
١٦ الضحك في الجنازة

- ١٧ سد الشارع بالسيارة
- ١٧ الاتصال في أوقات غير مناسبة
- ١٨ استخدام أشياء الغير بصورة غير لائقة
- ١٨ إزعاج الآخرين باستخدام أشياءك الخاصة
- ١٩ استخدام المتعلقات الشخصية الخاصة بالآخرين
- ١٩ الاختلاف في الرأي لا يفسد للود قضية
- ٢٠ الدفع بالناس إلى الكذب
- ٢٠ الاعتذار
- ٢٠ النصح والنقد
- ٢٠ الستر على الآخرين
- ٢١ حفظ السر
- ٢١ لا تفسر كلام الآخرين كما يحلو لك
- ٢٢ انتقاء الألفاظ
- ٢٢ إياك والتشيط
- ٢٣ من أدب المعاملات المالية
- ٢٤ الوفاء بالوعد وسداد الدين
- ٢٥ هل جزاء الإحسان إلا الإحسان
- ٢٥ إياك والمماطلة
- ٢٦ الضامن
- ٢٧ اهتم بالجميع

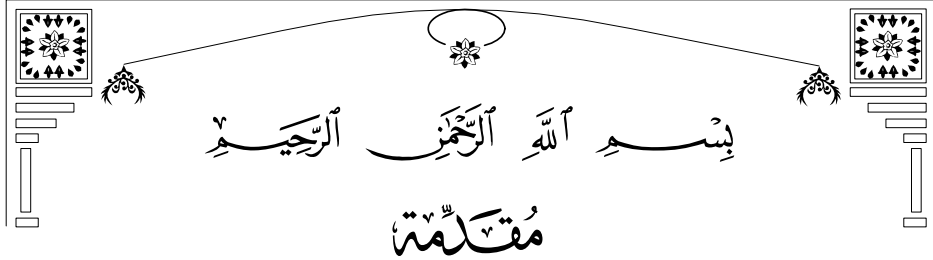
٢٧ متخصص في الحوادث
٢٧ مراعاة مشاعر الآخرين
٢٨ مواساة المرضى ورفع الحالة المعنوية للمريض
٢٨ المساهمة في تكاليف العلاج
٢٩ الطبيب والمريض
٢٩ لا تتدخل في ما لا يعنك
٣٠ كسب القلوب
٣١ إظهار الفرح
٣١ الالتزام بالمواعيد
٣١ من آداب الطريق
٣٢ من آداب التاجر المسلم
٣٢ لا تكن من الثقلاء
٣٤ من آداب الزيارة
٣٩ من آداب الطعام
٤٠ أدب الاستفتاء
٤١ التدخين
٤٢ المراجع
٤٣ فهرس الموضوعات



رسالة إلى أخي المتكبر

كتبها

إسلام محمود ودرباله



إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له، وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له، وأشهد أن محمداً عبده ورسوله.

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ﴾

[آل عمران: ١٠٢].

﴿يَأَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ ءِالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ [النساء: ١].

﴿يَأَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيدًا ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب: ٧٠ - ٧١].

أما بعد: هذه رسالة أكتبها إليك أخي، فأنت أخي في الإسلام تجمعنا أواصر العقيدة الواحدة، والملة الخالدة، والأخلاق الحسنة التي نتعامل بها مع بعضنا البعض، وهناك أواصر وروابط مشتركة كثيرة بيني وبينك، فنحن نعيش في بيئة واحدة، ومجتمع واحد، ونتحدث بلغة واحدة، وقد يكون بيني وبينك قرابة أو نسب أو مصاهرة، فنحن بيننا الكثير والكثير من الأشياء الجميلة، والنقاط المشتركة، ولك عليّ حق النصح والتوجيه والتعليم، والدلالة على الخير، والتحذير من الشر؛ فأنت أخي... أخي

في الدين واللغة والمجتمع، وربما كنت جاري أيضاً، يا إلهي... كل هذه روابط تجمعنا سوياً.

قال ﷺ: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ [البقرة: ١٤٣].

وقال ﷺ: ﴿وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْفَلَكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

وقال ﷺ: «الدين النصيحة»، قلنا: لمن يا رسول الله؟ قال: «لله ورسوله والمؤمنين»^(١)، وقال ﷺ: «المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يخذله، ولا يحقره»^(٢)، وفي الحديث الآخر: «المسلم أخو المسلم، لا يظلمه، ولا يسلمه»^(٣)، فأنت لك حقٌ علي كبير، لا أستطيع أن أحقرك لأنك أخي... لا أستطيع أن أخذلك لأنك أخي... لا أستطيع أن أسلمك لأنك أخي...

لا أستطيع أن أتكبر عليك، ولا أن أتعالى عليك لأنك أخي، وعندك من المزايا ما يجعلني أمتدحك وأثني عليك بالخير، وفيك من ضروب الخير أشكالاً وألواناً، إلا أن فيك أمراً لا أرى أمامي بدٌ من مواجهتك به؛ لشدة خطره وكبير ضرره على نفسك وأبنائك، وأسرتك ومجتمعك، ودينك وأخرتك.

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه مسلم.

(٣) رواه البخاري.

وكأني بك تقول: يا الله، كل هذا الخطر والضرر (أنا) واقعٌ فيه ومتلبسٌ به . . .

أقول لك وللأسف نعم، أخي أنا على يقين تام بأنك قد لا تشعر بهذا الخطر المحقق بك وببي وبالمجتمع؛ بل وبالأمّة جمعاء.
وكأني بك تضحك في نفسك وتهزأ؛ وتقول: وما دخل الأمّة في الموضوع؟!!

وكأني بك تقول إنك أيها الإنسان، تعظم الأمور، وتنفخ فيها، وتعطيها أكبر من حجمها وقدرها، فأنت من أهل التهويل، أو ربما كانت عندك حساسية زائدة.

أقول لك: إن الأمور الحقيرة الصغيرة تعظم وتكبر مع الزمان أو مع عدم مبالاة الفاعل، فمن قواعد أهل العلم: «لا كبيرة مع استغفار، ولا صغيرة مع إصرار»، وأنت متلبسٌ (بكبيرة)، يا لله كبيرة، نعم، إن الكبر من كبائر الذنوب، وسيأتيك بيان ذلك.

أما بيان كيف أن هذا الكبر يضر بك وببي وبالمجتمع؛ بل وبالأمّة.
فإليك البيان: يتكبر الإنسان فيبغضه من حوله، ويتلاشون الحديث معه، أو تجد صنفاً آخر يناوشونه ويقذعون^(١) له في القول؛ بل وقد يصل الأمر إلى أن يتكبروا عليه، فيكون كبره قد ولّد كبراً وعلمه لغيره، وقد تقع بينك وبين من تتكبر عليه عداوة وبغضاء، فهو يبغضك بكبرك، فيبغضك ويخاصمك حتى تقع

(١) أقذع في القول: أي: قال له كلاماً قبيحاً سيئاً.

بينكما العداوة . . . أو تظن أن كل الناس ستتحمل كبرك المقيت البغيض .
 أما المجتمع ، فتجد هذا الإنسان المتكبر يتكبر على خلق الله ، فينشر
 الكبر بين الناس ، ويبادلونه الحقد والعداوة والبغضاء ، وقد يكتسبون منه
 هذا الخلق البغيض ، فيتكبرون عليه .

وهذا الكبر لا تظنه يقتصر على الناس بعضهم البعض ، فمن الناس من
 يصل به كبره إلى التكبر على نصوص الكتاب والسنة ، وإلى التكبر على جبار
 السماوات والأرض إلى التكبر على الخالق ﷻ .

فخطر الكبر عظيم ، تجد أحدهم ولنفترض أنه مسئول قرية يتكبر على
 مواطنيه ، ومن هو دونه ، فيورث الكبر والعداوة ، فيتفلت الناس من حوله ،
 ويحاولون شق عصا الطاعة ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً ، ثم تجد العداوة
 بينه وبين مَنْ هم دونه من المسئولين كمسئول الزراعة بالقرية أو مسئول
 المياه أو ما شابه من المناصب ، فتقع البغضاء وتتطور ، ويتكبر هذا على
 ذاك ، ويحتقن الآخر ، فيصل الأمر به إلى الغل والحقد ، فيكيد هذا لهذا ،
 حتى قد يصل الأمر إلى القتل ، وهذا مشهورٌ معروفٌ في القرى والبراري من
 قديم الزمان .

فإن ارتقيت أو قل انحدرت إلى الأعلى ، فتجد العداوة بين مسئول القرية
 ومسئول المدينة ، وهكذا .

بل تجد الكبر يصل إلى رؤساء الدول والبلاد ، فتضيع مصالح الأمم ،
 وقد تقوم حروبٌ بين دول أو تقطع علاقات لا شيء إلا لتكبر هذا على
 ذاك ، وتعالى هذا على هذا .

. . . أخي لو تصورت الأمر، فإن الأمر كبيرٌ جليل .
 وكأني بك تقول: أو لم يتبق من الأمور إلا الكبر، أين أنت من الشرك
 أين أنت من أكل أموال الناس بالباطل، أين أنت من ترك الصلوات؟
 أقول: إن كل ذلك من المهمات العظام، وقد تكلم عنها أهل العلم،
 وتكلمتُ على كثير منها في بعض ما سطرته نصحًا وتوجيهًا ولله الحمد
 والمنة .

وأمر الكبر خطره عظيم أيضًا، وهو داءٌ قد لا يشعر به صاحبه،
 ولا يستشعر خطره، وهو أمر يؤذيني شخصيًا، وأرقب توغله وانتشاره بين
 الناس من طرفٍ خفي، ولما أعانيه من ضرر الكبر وسوء عاقبته كتبت لك
 أخي هذه الكلمات؛ عسى أن تكون سببًا للإصلاح والتغيير والتحسين .

ومن طريف ما حصل معي أنني في أثناء إعدادي هذه الرسالة التي بين
 يديك وجدت أنني قد أقع في بعض تصرفات المتكبرين، أو قد يصدر
 عني تصرف فيه كبر في بعض الأحيان .

فهذه من فوائد الاشتغال بالعلم أنه يكشف للإنسان ما قد يقع فيه من
 الأخطاء، فيعالجها ويداويها، نسأل الله أن يداوي عيوبنا، وأن يسد
 خللنا، وأن يغفر زللنا .

ولا يخفى أن هناك فرقًا بين أن نقول: فلانٌ متكبر، وفلان فيه كبر،
 أو وافقت أفعاله أفعال المتكبرين، فهي درجات متفاوتة، وسيأتيك
 تفاصيل ذلك بعون الملك الكريم .

وللحسن بن عبد الله أبو هلال العسكري كان حيًّا (٣٩٥ هـ) رسالة بعنوان: «ذم الكبر»^(١).

نعوذ بالله تعالى من الكبر كله، دقه وجله، كبيره وصغيره، وأستغفره سبحانه من الكبر والعجب، والشح والغل، والحقد واحتقار المسلمين، وأستغفره سبحانه من كل ذنب هو أعلم به مني، اللهم احشرونا في أهل التواضع.

كتبه

أخوك المحب/ إسلام درباله



(١) حققها يوسف محمد فتحي عبد الوهاب مصر - دمنهور - مجلة كلية اللغة العربية بإيتاي البارود، عدد ١٧ - ١٤٢١ هـ = ٢٠٠١ م، ص ٤١٧ - ٤٨٨ .

تعريف الكبر

الكبر لغة: «العظمة والكبرياء»^(١).

والاستكبار: الامتناع عن قبول الحق، معاندةً وتكبراً^(٢).

الكبر في الاصطلاح: «الكبر رفع نفسه فوق قدره... فالكبر هو ظن الإنسان بنفسه أنه أكبر من غيره والتكبر إظهاراً لذلك، وهذه الصفة لا يستحقها إلا الله تعالى، ومن ادعاها من المخلوقين فهو كاذبٌ فيها، ولذلك صار مدحاً في حق الباري ﷻ، وذمّاً في البشر، وإنما شرف المخلوق في إظهار العبودية، كما قال تعالى: ﴿لَنْ يَسْتَنْكِفَ الْمَسِيحُ أَنْ يَكُونَ عَبْدًا لِلَّهِ وَلَا الْمَلَائِكَةُ الْمُقَرَّبُونَ﴾ [النساء: ١٧٢] تنبيهاً على أن ذلك لهم رفعة لاضعة».

«الكبر خلقٌ باطن تصدر عنه أعمال هي ثمرته، فيظهر على الجوارح، وذلك الخلق هو: رؤية النفس على المتكبر عليه.

يعني: يرى نفسه فوق الغير في صفات الكمال، فعند ذلك يكون متكبراً.

وبهذا ينفصل عن العجب، فإن العجب لا يستدعي غير المعجب، حتى لو قدر أن يخلق الإنسان وحده، تصور أن يكون معجباً، ولا يتصور أن يكون متكبراً، إلا أن يكون مع غيره وهو يرى نفسه فوقه.

فإن الإنسان متى رأى نفسه بعين الاستعظام، حَقَّرَ من دونه وازدراه،

(١) «المصباح المنير» (١٩٩).

(٢) «لسان العرب» (٣٨٠٨/٥).

وصفة هذا المتكبر: أن ينظر إلى العامة كأنه ينظر إلى الحمير استجهالاً واستحقاراً^(١).

«والمتكبر والضرع^(٢) كلاهما جاهلان، لكن الضرع غبي والمتكبر غبي أحرق، وشتان بينهما، فالغبي قد يتأدب والأحرق لا سبيل له إلى تأدبيه، ولأن الضرع قد ترك ماله، والمتكبر ادعى ما ليس له وشتان ما بين المنزلتين^(٣)».

قالوا عن الكبر

«قال بعض الفضلاء: الكبر والإعجاب يسلبان الفضائل ويكسبان الرذائل».

مر بعض أولاد المهلب بن أبي صفرة بمالك بن دينار وهو يتبختر في مشيته، فقال له مالك: يا بني لو تركت هذا الخيلاء لكان أجمل، فقال: أو ما تعرفني؟ قال: أعرفك معرفة جيدة، أولئك نطفة مذرة، وأحرك جيفة قدرة، وأنت بين ذلك تحمل العذرة. فأرخى الفتى رأسه وكف عما كان عليه.

وقال الأحنف بن قيس: عجبت لمن جرى في مجرى البول مرتين كيف يتكبر.

(١) «مختصر منهاج القاصدين» (٢٢٧ - ٢٢٨).

(٢) الضرع: تدل على عدة معانٍ في دائرة الصغير، والضعف والجبن «لسان العرب» (٢/٥٣٠).

(٣) «الذريعة إلى مكارم الشريعة» (٢٩٩ - ٣٠٠).

أشعار عن الكبر

وقال منصور الفقيه:

تتيه وجسمك من نطفة وأنت وعاء لما تعلم^(١)

وقال ابن عوف:

عجبت من مُعجِبٍ بصورته وكان بالأمس نطفة مذرة

وفي غدٍ بعد حسن صورته يصير في اللحد جيفة قَدْرَه

وهو على تيهه ونخوته ما بين ثوبيه يحمل العَدْرَه^(٢)

وقد وصف بعض الشعراء الإنسان فقال:

يا مظهر الكبر إعجابًا بصورته أنظر خَلاك فإن النُّتن تشريبُ

لو فكر الناس فيما في بطونهم ما استشعر الكبر شُبَان ولا شيبُ

هل في ابن آدم مثل الرأس مكرمةً وهو بخمس من الأقدار مَضْرُوبُ

أنفٌ يسيل وأذن ريحها سهكٌ والعين مُرْمَصَةٌ والشغْرُ ملعوبُ

يا ابن التراب ومأكل التراب غَدًا أقصر فإنك مأكولٌ ومشروب^(٣)

(١) «غذاء الألباب» (٢/٢٣٣).

(٢) «أدب الدنيا والدين» للماوردي - ص (٢٣٢).

(٣) «أدب الدنيا والدين» للماوردي (٢٣٣).

وقال آخر:

وياك والإعجاب والكبر تحظ بالسـ عادة في الدارين فارشد

وقال آخر:

كبراً علينا وجبناً عن عدوكم لبئست الخلتان: الكبر والجبن

قالوا عن الكبر

«قال بعضهم: رأيتُ في الطواف رجلاً بين يديه شاكره يمنعون الناس لأجله عن الطواف، ثم رأيتُه بعد ذلك بمدة على جسر بغداد يسأل شيئاً، فتعجبت منه، فقال لي: تكبرت في موضع يتواضع الناس فيه، فابتلاني الله بالذل في موضع يترفع الناس فيه»^(١).

قال ابن الجوزي رحمته الله: «ولولا عزة الفهم ما تكبر متكبرٌ على جنسه، ولكان كل كامل خائفاً محتقراً لعمله، حذراً من التقصير في شكر ما أنعم عليه»^(٢).

«وفهم هذا المشروح ينكس رأس الكبر ويوجب مساكنة الذل»^(٣).

«عجبت لمن يُعجب بصورته، ويختال في مشيته، وينسى مبدأ أمره، إنما أوله لقمة ضمت إليها جرعة ماء، فإن شئت فقل: كسرة خبز معها

(١) «مدارج السالكين» لابن القيم (٢/٣٤٠).

(٢) «صيد الخاطر» لابن الجوزي.

(٣) «صيد الخاطر» لابن الجوزي.

تمرات، وقطعة من لحم، ومذقة من لبن، وجرعة من ماء، ونحو ذلك، طبخته الكبد، فأخرجت منه قطرات مني فاستقرت في الأنثيين، فحركتها الشهوة، فبقيت في بطن الأم مدة حتى تكاملت صورتها، فخرجت طفلاً تَقَلَّبَ في خرق البول.

وأما آخره؛ فإنه يلقي في التراب فيأكله الدود ويصير رفاتاً تسفيهه السوافي.

وكم يخرج تراب بدنه من مكان إلى مكان آخر، ويقلب في أحوال إلى أن يعود فيجمع^(١).

وقال ابن الجوزي:

«ومن تأمل خصال نفسه وذنوبها علم أنه على يقين من الذنوب والتقصير، وهو من حال غيره على شك.

فالذي نحذر منه الإعجاب بالنفس، ورؤية التقدم في أحوال الآخرة.

والمؤمن لا يزال يحتقر نفسه، وقد قيل لعمر بن عبد العزيز: إن مت ندفنك في حجرة رسول الله ﷺ؟ فقال: لأن ألقى الله بكل ذنب غير الشرك أحب إلي من أن أرى نفسي أهلاً لذلك^(٢).

قال ابن الجوزي: «روينا أن رجلاً من الرهبان رأى في المنام قائلاً يقول له: فلان الإسكاف^(٣) خيرٌ منك، فنزل من صومعته فجاء إليه فسأله عن

(١) «صيد الخاطر» لابن الجوزي.

(٢) «صيد الخاطر» لابن الجوزي.

(٣) الإسكاف: هو الذي يصلح الأحذية.

عمله ، فلم يذكر له كبير عمل .

فقيل له في المنام : عد إليه وقل له : مم صفرة وجهك؟ فعاد فسأله ، فقال : ما رأيت مسلماً إلا وظنته خيراً مني ، فقيل له : فبذاك ارتفع^(١) .

من شر أنواع الكبر

«من شر أنواع الكبر ما يمنع من استفادة العلم وقبول الحق ، والانقياد له . وقد تحصل المعرفة للمتكبر ، ولكن لا تطاوعه نفسه على الانقياد للحق ، كما قال تعالى : ﴿ وَحَدِّثْهُمْ بِهَا وَاسْتَيْقَنَتْهَا أَنفُسُهُمْ ظُلْمًا وَعُلُوًّا ﴾ [النمل : ١٤] ، ﴿ فَقَالُوا أَتُؤْمِنُ لِبَشَرٍ مِثْلِكَ ﴾ [المؤمنون : ٤٧] ، ﴿ إِنَّ أَنْتَ إِلَّا بَشَرٌ مِثْلُنَا ﴾ [إبراهيم : ١٠] ، والآيات كثيرة نحو هذا ، وهذا تكبرٌ على الله وعلى رسوله . أما التكبر على عباد الله فهو احتقارهم واستعظام نفسه عليهم ، وذلك أيضاً يدعو إلى التكبر على أمر الله تعالى ، كما حمل إبليس كبره على آدم عليه السلام أن امتنع من امثال أمر ربه في السجود^(٢) .

أبعد الناس عن الكبر والعجب

«أحق من كان للكبر مجانباً ، وللإعجاب مبايناً من جل في الدنيا قدره ، وعظم فيها خطره ، لأنه قد يستقل بعالي همته كلٌّ كثير ، ويستصغر معها كل كبير ، وقال محمد بن علي : لا ينبغي للشريف أن يرى شيئاً من الدنيا لنفسه

(١) «صيد الخاطر» لابن الجوزي .

(٢) «مختصر منهاج القاصرين» (٢٢٨) .

خطيراً فيكون مهاناً به .

وقال ابن السماك لعيسى بن موسى : تواضعك في شرفك أشرف لك من شرفك .

وكان يقال : اسمان متضادان بمعنى واحد : التواضع والشرف»^(١) .

درجات الكبر

«الأولى : أن يكون الكبر مستقراً في قلب الإنسان منهم ، فهو يرى نفسه خيراً من غيره ، إلا أنه يجتهد ويتواضع ، فهذا في قلبه شجرة الكبر مغروسة إلا أنه قد قطع أغصانها .

الثانية : أن يُظهر لك بأفعاله من الترفع في المجالس ، والتقدم على الأقران ، والإنكار على من يقصر في حقه .

الثالثة : أن يظهر الكبر بلسانه ، كالدعوى والمفاخر ، وتركية النفس ، وحكايات الأحوال في معرض المفاخرة لغيره»^(٢) .

أقبح الكبر بين البشر

«أقبح الكبر بين الناس ما كان معه بخل ، واستحسن قول الشاعر :

جمعت أمرين ضاع الحزم بينهما تيه الملوك وأفعال المماليك»^(٣)

(١) «أدب الدنيا والدين» للماوري (٢٣٣ - ٢٣٤) .

(٢) «مختصر منهاج القاصدين» (٢٢٩) .

(٣) «الذريعة إلى مكارم الشريعة» (٣٠١) .

الكبر أول ذنب عصي الله ﷻ به

«أول ذنب عصى الله به أبوا الثقلين: «الكبر» و«الحرص» فكان الكبر ذنب إبليس اللعين فآل أمره إلى ما آل إليه، وذنّب آدم عليه وعلى نبينا السلام كان من الحرص والشهوة، فكان عاقبته التوبة والهداية، وذنّب إبليس حمله على الاحتجاج بالقدر والإصرار، وذنّب آدم أوجب إضافته إلى نفسه، والاعتراف به والاستغفار.

فأهل الكبر والإصرار والاحتجاج بالأقدار مع شيخهم وقائدهم إلى النار إبليس، وأهل الشهوة: المستغفرون التائبون المعترفون بالذنوب الذين لا يحتجون عليها بالقدر مع أبيهم آدم في الجنة^(١).

ذم الكبر شرعاً وطبعاً

«الكبر والعجب مذمومان شرعاً وطبعاً، أما الشرع: فقد علمت دليله. وأما الطبع: فإن الكبر حركات شيطانية، وخطرات نفسية يتركب من رؤية قدره، ونفوذ علمه وحكمته وقصور غيره عن حاله، ويورثه استكباراً عن الحق إذا طولب به، وإقامة المعاذير لنفسه عند ظهور الحجة عليه، والغيبة عن ربه ومولاه الذي هو رقيب عليه، فلو لاحظ ذلك لذلت نفسه، واعتدل كبره، وصار عزة؛ إذ معرفة الله تعالى وظهور صفات النفس غالباً لا يجتمعان؛ اللهم إلا في ناقص البصيرة، بحيث يبصر أمراً ويغيب عن

(١) «مدارج السالكين» لابن القيم (٢/٣١٧).

آخر، فقد يدخل عليه بسلب العمى ما يخلفه عن ذلك»^(١).

التكبر على الله ﷻ

جاء في «لسان العرب»: «استكبار الكفار: ألا يقولوا لا إله إلا الله .
ومنه قول الله تعالى: ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا إِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ يَسْتَكْبِرُونَ﴾
[الصفات: ٣٥] وهذا هو الكبر الذي قال النبي ﷺ: «إن من كان في قلبه
مثقال ذرة من كبر لم يدخل الجنة» قال: يعني به الشرك، لا أن يتكبر
الإنسان على مخلوقٍ مثله وهو مؤمنٌ بربه»^(٢).

التكبر على الله شرًّا من الشرك

قال ابن القيم: وسمعت شيخ الإسلام ابن تيمية رَحِمَهُ اللهُ يَقُولُ: التكبر شرٌّ من
الشرك، فإن المتكبر يتكبر عن عبادة الله تعالى، والمشرك يعبد الله
وغيره»^(٣).

التكبر على الخلق

«التكبر على الخلق ينقسم إلى قسمين:

أحدهما: التكبر على الرسل عليهم الصلاة والسلام من جهة ترفع النفس

(١) «مدارج السالكين» لابن القيم (٢/٣٤٠).

(٢) «لسان العرب» لابن منظور (٥/٣٨٠٨).

(٣) «مدارج السالكين» لابن القيم (٢/٣١٧).

عن الانقياد للبشر، وربما عرفت النفوس صحة قولهم وما جاؤوا به فيمنعها الكبر عن الانقياد والانفعال لهم، وهذا كفر، نعوذ بالله منه ومن غيره.

والثاني: التكبر على الخلق، سوى من قدمنا من الأنبياء والمرسلين. وهو عظيم من وجهين:

أحدهما: أن الكبرياء والعظمة لا تليق إلا بالملك القادر لا بالعبد العاجز، ثم إنه يتكبر بما ليس له ولا خلق شيئاً منه، وأمره في يد غيره، وهو مربوب مقهور.

إن أعجب بجماله فجماله ليس هو من صنعه، أو بعلمه، فعلمه ليس من وسعه، فإنه لا يتعقل كيف يعلق العلم بالقلب، ولا يدرك كيف يعقل في الحافظة، ولا يحيط بكنه حقائق الحراس الباطنة، ومن كان بمثل هذه المثابة فكيف يعجب ويتكبر.

الوجه الثاني: أن الكبر يدعو إلى مخالفة الله ﷻ في أمره ونهيه؛ لأن المتكبر يأنف من قبول الحق: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُ اتَّقِ اللَّهَ أَخَذَتْهُ الْعِزَّةُ بِالْإِثْمِ﴾ [البقرة: ٢٠٦]، ولذا قال ﷺ: «الكبر بطر الحق، وغمط الناس»^(١)، وربما تكبر العالم واحتقر الناس، ويرى أنه في الآخرة أعلى منهم منزلة، وليس هذا بعالم بل ظالم، لأن العلم هو الذي يعرف الإنسان نفسه، ويعلمه حجة الله عليه فيزيده خوفاً.

ولذا قال أبو الدرداء رضي الله عنه: من ازداد علماً ازداد وجعاً، وربما كان العلم

(١) رواه مسلم.

حجة عليه عند الله تعالى ، وربما تكبر العابد بعبادته ولعلها غير مقبولة عند الله جل شأنه ، وربما تكبر صاحب النسب بنسبه ، ونسي قوله تعالى : ﴿ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتَقْوَى ﴾ [الحجرات: ١٣] ، وربما تكبر الغني بغناه ، ولو عرف المسكين آفة الغنى وشرف الفقر ، وأن الدنيا لو كانت تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى الكافر منها شربة ماء ، وأن الفقراء يسبقون الأغنياء إلى الجنة بخمسمائة عام ، لما تكبر بها»^(١).

ذم الكبر والمتكبرين في القرآن الكريم

قال ﷻ : ﴿ إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْتَكْبِرِينَ ﴾ [النحل: ٢٣].

وقال تعالى : ﴿ أَلَيْسَ فِي جَهَنَّمَ مَثْوًى لِّلْمُتَكَبِّرِينَ ﴾ [الزمر: ٦٠].

وقال سبحانه : ﴿ فَأَلْيَوْمَ يُجْرَوْنَ عَذَابَ الْهُونِ بِمَا كُنتُمْ تَسْتَكْبِرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ [الأحقاف: ٢٠].

وقال عز من قائل : ﴿ كَذَلِكَ يَطْبَعُ اللَّهُ عَلَى كُلِّ قَلْبٍ مُّتَكَبِّرٍ جَبَّارٍ ﴾ [غافر: ٣٥].

وقال جل شأنه : ﴿ وَلَا تَمْشِ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا ﴾ [الإسراء: ٣٧].

تفكر في أصلك وتركيبك وقد نبه الله سبحانه على ذلك أحسن تنبيه فقال : ﴿ فَلْيَنْظُرِ الْإِنْسَانُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِنْ مَّاءٍ دَافِقٍ ﴿٦﴾ يُخْرَجُ مِنْ بَيْنِ الصُّلْبِ وَالتَّرَائِبِ ﴾ [الطارق: ٥ - ٧].

(١) «غذاء الألباب شرح منظومة الآداب» للسفاريني (٢/ ٢٢٤).

وقال تعالى: ﴿قُلْ الْإِنْسَانُ مَا أَكْفَرُهُ ﴿٧﴾ مِنْ أَيِّ شَيْءٍ خَلَقَهُ ﴿٨﴾ مِنْ نُطْفَةٍ خَلَقَهُ فَقَدَّرُهُ ﴿٩﴾﴾ [عبس: ١٧ - ١٩].

وقال سبحانه: ﴿إِنَّا خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ مِنْ نُطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَبْتَلِيهِ ﴿١﴾﴾ .

وقال تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرِ الْإِنْسَانُ أَنَّا خَلَقْنَاهُ مِنْ نُطْفَةٍ فَإِذَا هُوَ خَصِيمٌ مُبِينٌ ﴿٧٧﴾﴾ [يس: ٧٧].

الأحاديث الواردة في ذم الكبر

* عن حارثة بن وهب رضي الله عنه سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «ألا أخبركم بأهل النار: كل عتلٍ جواظٍ مستكبر»^(١).

قال الحافظ المنذري: «العتلُ بضم العين المهملة والتاء المثناة فوق، وتشديد اللام، هو: الغليظ الجافي.

والجواظ: بفتح الجيم وتشديد الواو وبالطاء المعجمة: هو الجموع المنوع، وقيل: الضخم المختال في مشيته»^(٢).

* وعن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه مرفوعاً: «يقول الله عز وجل: «العز إزاره، والكبرياء رداؤه، فمن ينازعني عذبتة»^(٣).

* وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ثلاثة لا يكلمهم الله

(١) رواه البخاري ومسلم.

(٢) «الترغيب والترهيب».

(٣) رواه مسلم.

تعالى يوم القيامة ولا يزيكهم ولهم عذابٌ أليم: شيخُ زان، ومملكٌ كذاب، وعائلٌ مستكبر»^(١).

العائل: بالمد، هو الفقير.

* عن أبي سلمة بن عبد الرحمن بن عوف قال: التقى عبد الله بن عمر وعبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما على المروة فتحدثا، ثم مضى عبد الله ابن عمرو، وبقي عبد الله بن عمر يبكي، فقال له رجل: ما يبكيك يا أبا عبد الرحمن؟ قال: هذا؛ يعني عبد الله بن عمرو، زعم أنه سمع رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «من كان في قلبه مثقال حبة من خردل من كبر، كبه الله لوجهه في النار»^(٢).

وفي رواية: «لا يدخل الجنة إنسان في قلبه مثقال حبة من كبر»^(٣).

* عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر» فقال رجل: «إن الرجل يحب أن يكون ثوبه حسناً ونعله حسنة!!»، قال: إن الله جميلٌ يحب الجمال، الكبر بطر الحق وغمط الناس»^(٤).

بطر الحق: بفتح الباء الموحدة والطاء المهملة جميعاً، وهو: دفعه

ورده.

(١) رواه مسلم.

(٢) رواه أحمد.

(٣) رواه مسلم.

(٤) رواه مسلم.

وغمط الناس: بفتح الغين المعجمة وسكون الميم وبالطاء المهملة، هو: احتقارهم وازدراؤهم.

عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن رسول الله ﷺ قال: «يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذر، في صور الرجال يغشاهم الذل من كل مكان، يساقون إلى سجن في جهنم يقال له: (بؤلس) تعلقهم نار الأنيار، يسقون من عصارة أهل النار طينة الخبال»^(١).

بولس: بضم الباء الموحدة، وسكون الواو، وفتح اللام بعدها سين مهملة، والخبال: بفتح الخاء المعجمة والباء الموحدة؛ عصارة أهل النار.

عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن أحبكم إلي وأقربكم مني مجلساً يوم القيامة أحاسنكم أخلاقاً، وإن أبغضكم إلي وأبعدكم مني مجلساً يوم القيامة، الثرثارون والمتشدقون، والمتفيهقون قالوا: يا رسول الله قد علمنا الثرثارون والمتشدقون، فما المتفيهقون؟ قال: المتكبرون»^(٢).

قال الحافظ المنذري: «الثرثار بثنائين مثلثين متفتوحتين، وتكرير الراء هو الكثير الكلام تكلفاً، والمتشدد هو المتكلم بملء فيه تفاصحاً وتعاضماً واستعلاءً، وهو معنى المتفيهق أيضاً»^(٣).

(١) رواه النسائي والترمذي وحسنه.

(٢) رواه أحمد والترمذي، والطبراني وابن حبان، وقال الترمذي: حسن غريب.

(٣) الترغيب والترهيب - للمنذري.

الفرق بين المهابة والكبر

«المهابة أثر من آثار امتلاء القلب بعظمة الله ومحبته وإجلاله، فإذا امتلاء القلب بذلك حل فيه النور، ونزلت عليه السكينة، وألبس رداء الهيبة، فاكتسى وجهه الحلاوة والمهابة، فأخذ بمجامع القلوب محبةً ومهابةً، فحنت إليه الأفتدة، وقرت به العيون، وأنست به القلوب، فكلامه نور، ومدخله نور، ومخرجه نور، وعلمه نور، إن سكت علاه الوقار، وإن تكلم أخذ بالقلوب والأسماع.

أما الكبر: فأثر من آثار العجب والبغي، من قلب قد امتلأ بالجهل والظلم، ترحلت منه العبودية ونزل عليه المقت، فنظره إلى الناس شزر، ومشيه بينهم تبختر، ومعاملته لهم معاملة الاستئثار لا الإيثار ولا الإنصاف، ذاهبٌ بنفسه تيهًا، لا يبدأ من لقيه بالسلام، وإن رد عليه رأى أنه قد بالغ في الإنعام عليه، لا ينطلق لهم وجهه، ولا يسعهم خلقه، ولا يرى لأحد عليه حقًا، ويرى حقوقه على الناس ولا يرى فضلهم عليه، ويرى فضله عليهم، ولا يزداد من الله إلا بعدًا ولا من الناس إلا صغارًا وبغضًا»^(١).

الفرق بين الصيانة والتكبر

«الصائن لنفسه بمنزلة رجل قد لبس ثوبًا جديدًا نقي البياض ذا ثمن، فهو يدخل به على الملوك فمن دونهم، فهو يصونه عن الوسخ والغبار، والطبوع

(١) «الروح» لابن القيم.

وأنواع الآثار إبقاءً على بياضه ونقاؤه بخلاف صاحب العلو فإنه وإن شابه هذا في تعززه وتجنبه فهو يقصد أن يعلو رقابهم، ويجعلهم تحت قدمه، فهذا لونٌ وذاك لون، فجعل الكبر أثرًا من آثار العجب وثمره من ثمراته»^(١).

طرفان ووسط

«اعلم أن هذا الخُلُق كسائر الأخلاق له طرفان ووسط. فطرفه الذي يميل إلى الزيادة يسمى تكبرًا. وطرفه الذي يميل إلى النقصان يسمى تخاسسًا ومذلة. والوسط يسمى تواضعًا، وهو المحمود، وهو أن يتواضع من غير مذلة، فخير الأمور أوسطها. فمن تقدم على أقرانه فهو: متكبر ومن تأخر عنهم فهو: متواضع؛ لأنه قد وضع شيئًا من قدره. فأما إذا أدخل على العالم إسكاف^(٢) أو نحوه، فتنحى له^(٣) عن مجلسه وأجلسه فيه، ثم قدم له نعله ومشى معه إلى الباب؛ فقد تخاسس وتذلل^(٤)، فذلك غير محمود، بل المحمود العدل، وهو أن يعطي كل ذي حقٍ حقه.

(١) «الروح» لابن القيم.

(٢) الإسكاف: هو الذي يصلح الأحذية.

(٣) أي تنحى العالم للإسكاف.

(٤) أي: العالم.

لكن تواضعه للسوقة بالرفق في السؤال، واللين في الكلام وإجابة الدعوة، والسعي في الحاجة، ولا يحقره ولا يستصغره»^(١).

الكبر يتولد من العجب

قال الراغب الأصفهاني:

«الكبر يتولد من الإعجاب، والإعجاب من الجهل بحقيقة المحاسن، والجهل رأس الانسلاخ من الإنسانية»^(٢).

وقال صاحب مختصر منهاج القاصدين:

«اعلم أن العجب يدعو إلى الكبر، لأنه أحد أسبابه، فيتولد من العجب الكبر، ومن الكبر الآفات الكثيرة»^(٣).

وقال الحارث المحاسبي: «وله أسباب -أي الكبر- من جملتها العجب وهو أكبرها»^(٤).

العجب يتولد من الجهل

وسبب العجب وعلته الجهل المحض.

ومن أعجب بطاعته مثلاً فما فهم أنها بالتوفيق حصلت، فإن قال: رأني

(١) «مختصر منهاج القاصدين» (٢٣٣).

(٢) «الذريعة إلى مكارم الشريعة» (٣٠٠).

(٣) «مختصر منهاج القاصدين» (٢٣٤).

(٤) الرعاية - للحارث المحاسبي.

أهلاً لها فوقني، قيل له: فتلك نعمةٌ منه وفضله فلا تقابل بالإعجاب.
 «وإذا تم علم الإنسان لم ير لنفسه عملاً، ولم يعجب به، لأشياء.
 منها: أنه وفق لذلك العمل، و﴿حَبَّ إِلَيْكُمْ الْإِيمَنَ وَزَيَّنَهُ فِي قُلُوبِكُمْ﴾
 [الحجرات: ٧].

ومنها: أنه إذا قيس بالنعمة لم يف بمعشار عشرها.
 ومنها: أنه إذا لوحظت عظمة المخدوم احتقر كل عمل وتعبُد»^(١).

من علامات الكبر

«من علامات الكبر: أن يطلب إقامة جاهه، وكسر غيره، والانتقام منه
 بغير حق، ولا يذكر أحداً إلا انتقصه، وذكر عيوبه، ونسي فضائله وأظهر
 فضائل نفسه، وكل هذا مذمومٌ طبعاً»^(٢).

التكبر بالعلم

بعض الناس إذا علم معلومةً أو معلومات أو أوتي معرفة في علم من العلوم
 تجده يرى حظ نفسه ويغمت غيره ويحقره وما علم ذلك المسكين أنه خرج
 من بطن أمه لا يعلم شيئاً ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ
 شَيْئًا﴾ [النحل: ٧٨] وما تذكر أن الفضل لله ﷻ وحده فيما تعلمه وعرفه

(١) «صيد الخاطر» لابن الجوزي.

(٢) «غذاء الألباب» (٢/٢٣٠).

وهو سبحانه القادر على أن يسلبه علمه ومعرفته بل ويسلبه عقله كله .

يقول ابن الجوزي رحمته الله: «إن أقواماً عَلت هممهم فحصلوا علوم الشرع من القرآن والحديث والفقه والأدب وغير ذلك فأتاهم إبليس يخفي التلبس فأراهم أنفسهم بعين عظيمة لما نالوا وأفادوا غيرهم . . .» .

حسن لهم الكبر بالعلم، والحسد للنظير، والرياء لطلب الرياسة، فتارة يريهم أن هذا كالحق الواجب لهم وتارة يقوي حب ذلك عندهم فلا يتركونه مع علمهم بأنه خطأ .

وعلاج هذا لمن وفق إدمان النظر في إثم الكبر والحسد والرياء وإعلام النفس أن العلم لا يدفع شر هذه المكتسبات بل يضاعف عذابها لتضاعف الحجة بها .

ومن نظر في سير السلف من العلماء العاملين استقر نفسه فلم يتكبر، ومن عرف الله لم يراء، ومن لاحظ جريان أقدراته على مقتضى إرداته لم يحسد^(١) .

التكبر بالعبادة

بعض الناس إذا من الله عليه بالتعبد بعبادة من العبادات تجده يتكبر ويدل بعلمه ويحقر غيره من الناس ممن لم يفتح لهم في العبادة وهذا المسكين نسي أن الله سبحانه هو الذي من عليه بالعبادة وفتح له فيها وهو القادر

(١) تلبس إبليس (١٥٧ - ١٥٨) باختصار .

على أن يسلبها منه ، وينزع منه لذة العبادة بل والقدرة على فعلها ، فإن القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها كيف يشاء .

التكبر بالمال

يا صاحب المال من أتاك المال وماذا كنت قبل أن يؤتيك الله المال ، وما مصير مالك كلُّ إلى زوالٍ وفناء وفي الحديث «يتبع الميت ثلاثة فيرجع اثنان ويبقى معه واحد ، يتبعه أهله وماله وعمله فيرجع أهله وماله ويبقى عمله . . .»^(١) .

أين الملوك وأين الأغنياء وأين أصحاب القصور أين قارون وفرعون وهامان ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ ۖ وَءَاتَيْنَاهُ مِنْ الْكُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ ۖ وَابْتَغَ فِيمَا ءَاتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ ۖ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِنَ ۚ كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ ۖ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ [القصص: ٧٦ - ٧٧] .

التكبر بالنسب

أين ذوي النسب إنهم في التراب أكلهم الدود وماذا ينفع نسب إن أبطأ بك العمل .

(١) متفق عليه .

وأين أبا لهب ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾ ﴿١﴾ مَا أَغْنَىٰ عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ ﴿٢﴾ سَيَصْلَىٰ نَارًا ذَاتَ لَهَبٍ ﴿٣﴾ وَأُمَّرَاتُهُ حَمَّالَةَ الْحَطَبِ ﴿٤﴾ فِي جِيدِهَا حَبْلٌ مِّن مَّسَدٍ ﴿٥﴾ [المسد: ١ - ٥].

ومن تلبس إبليس «أن يكون لأحدهم نسبٌ معروف فيقول أنا من أولاد أبو بكر، وهذا يقول أنا من أولاد علي، وهذا يقول أنا من أولاد الحسن والحسين، أو يقول أنا قريب النسب من فلان العالم، أو من فلان الزاهد...»^(١).

التكبر بالجمال

ينبهر كثير من الناس بالشكل والمظهر، وتجد ذلك متفشٍ بكثرة بين النساء بعضهن البعض.

وهذا الجمال ذاهب والله ﷻ هو الواهب وهذا الجمال سيوضع على التراب ويأكله الدود بل قد يصير إلى جهنم والعياذ بالله إن لم ينجه عملٌ صالح، وقد قال ﷻ: ﴿إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَنْفَتَكُمْ﴾ [الحجرات: ١٣].

التكبر بالقوة

«ليس الشديد بالصرعة، ولكن من يملك نفسه عند الغضب»^(٢).
فالقوة تزول، والله ﷻ الذي وهبك القوة هو من أمرك بالعفو والحلم

(١) تلبس إبليس - لابن الجوزي (٤٧٢ - ٤٧٣).

(٢) رواه البخاري ومسلم.

والصفح والرفق والتواضع ، وقد قال ﷺ : « ما كان الرفق في شيء إلا زانه وما نزع من شيء إلا شانه »^(١) .

فأين عاد وأين إرم وأين ثمود ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ فَعَلَ رَبُّكَ بِعَادٍ ﴿٦﴾ إِرْمَ ذَاتِ الْعِمَادِ ﴿٧﴾ الَّتِي لَمْ يُخْلَقْ مِثْلُهَا فِي الْبِلَادِ ﴿٨﴾ وَثَمُودَ الَّذِينَ جَابُوا الصَّخْرَ بِالْوَادِ ﴿٩﴾ وَفِرْعَوْنَ ذِي الْأَوْنَادِ ﴿١٠﴾ الَّذِينَ طَعَوْا فِي الْبِلَادِ ﴿١١﴾ فَأَكْتَرُوا فِيهَا الْفَسَادَ ﴿١٢﴾ فَصَبَّ عَلَيْهِمْ رَبُّكَ سَوْطَ عَذَابٍ ﴿١٣﴾ إِنَّ رَبَّكَ لِبِالْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾ [الفجر: ٦ - ١٤] .

التكبر بالعيال

﴿ وَلَا تَطْعَمْ كُلَّ حَلَاْفٍ مَّهِينٍ ﴿١٠﴾ هَمَّازٍ مَشَاءٍ بِنَمِيمٍ ﴿١١﴾ مَنَاعٍ لِلْخَيْرِ مُعْتَدٍ أَثِيمٍ ﴿١٢﴾ عَتَلٍ بَعْدَ ذَلِكَ زَنِيمٍ ﴿١٣﴾ أَنْ كَانَ ذَا مَالٍ وَبَنِينَ ﴿١٤﴾ إِذَا تَتَلَّى عَلَيْهِ ءَابُنُنَا قَالَ أَسَاطِيرُ الْأَوَّلِينَ ﴿١٥﴾ سَنَسِمُهُ عَلَى الْخُرطومِ ﴿١٦﴾ [القلم: ١٠ - ١٦] .

التكبر بالكثرة

﴿ وَكَانَ لَهُ ثَمْرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا ﴿٣٤﴾ [الكهف: ٣٤] .

التكبر بالمناصب

بعض الناس يكون خادماً للمنصب ، لا هو ومنصبه خادماً لمن ولاه الله

(١) رواه مسلم .

عليهم ، سواء كانت تلك الولاية عامة أو ولاية خاصة .

فبعض الناس يسعى إلى المنصب ابتغاء الرفعة والفخر ، فيتكبر على الناس ، ولا يقضي مصالحهم وبعضهم قد يستغل نفوذ منصبه لتحقيق مصالح له ولمعارفه أو أقاربه .

والواجب أن يُسخر منصبه لخدمة المسلمين وتحقيق مصالحهم . وفي الأثر ، وما تواضع عبد لله إلا رفعة فالموفق منا كلما علا في المناصب ازداد في التواضع لله ولعباد الله المؤمنين .

التكبر بكثرة الأتباع

تقدم معنا قوله ﷺ حاكياً عن ﴿وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالًا وَأَعَزُّ نَفَرًا﴾ [الكهف: ٣٤] .

التكبر بالعقل والذكاء

بعض الناس قد يهبه الله من العقل والذكاء وربما القدرة على الحفظ ما لم يهب غيره فقد يشعره من آتاه الله تلك النعم بشيء من الترفع على الناس وقد يصل الأمر به إلى بطر الحق وغمط الناس عياداً بالله .

وبخاصة إذا وجد من ليس عنده من تلك النعم شيئاً أو من هو أقل منه فيها .

بل قد يتمادى به الأمر فيتناول على أهل العلم من أهل الفقه لدين الله من فقهاء ومحدثين وغيرهم من الشرعيين ، بما وهبه الله من ذكاء وعقل وحفظ ، والممدوح شرعاً هم أهل العلم بدين الله ﷻ وأهل الفقه لا أهل الذكاء والعقل والحفظ فعقل وذكاء وحفظ بدون هداية من الله وبدون علم شرعي قد يكون من آتاه الله علماً شرعياً مع قدرٍ من العقل والذكاء والحفظ دون القدر الذي أوتيته ذلك المتكبر يكون صاحب الفقه والعلم الشرعي في منزلة أعلى عند الله عن صاحب عقل وذكاء وحفظ مع جهلٍ وعدم فقه قال الله ﷻ: ﴿يَرْفَعُ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ﴾ [المجادلة: ١١] .

وقال ﷺ: «من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين»^(١) . وليعلم ذلك المتكبر أن العقل والذكاء والحفظ ليس بمذموم ولكن المذموم هو التكبر بتلك النعم ، فليراقب ذلك المتكبر ربه وليعلم أن الذي وهبه تلك النعم قادرٌ على أن يسلبها منه ، عقاباً على تكبره وبطره .

التكبر بالخبرة

حضرت حديثاً دار بين رجل صاحب مهنة طب فكان يقول أنا بخبرتي أستطيع أن أشخص الأمراض وأنا بخبرتي أستطيع أن أداوي ، فقال له محدثه ذلك فضل الله فإذا بذلك الطبيب يقول له لا لالا هذه خبرة مني .

فهذا المسكين من الذي آتاه الخبرة ومن الذي وهبه المعرفة ، وأعانه على الممارسة أليس هو جبار السماوات والأرض .

(١) رواه مسلم .

فالإنسان المتواضع لله ينسب الفضل لله أولاً ثم بعد ذلك ليقل خبرة أو ذكاء أو فهم أو ما شاء مما يسره الله له .

أقسام الكبر

١- كبر الكفر . ٢- كبر المعصية .

كبر الكفر:

«وهو الكبر الذي لا يدخل صاحبه الجنة . . . فإن العبد قد يتكبر على الخالق لفرط جهله فيكفر به ولا يعبده، وربما تكبر على أنبيائه ورسله، وهذا كافرٌ لا يدخل أبداً»^(١) .

قال في «النهاية»: «في قوله ﷺ: «لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال حبة خردل من كبر»^(٢)؛ يعني: كبر الكفر والشرك لقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ﴾ [غافر: ٦٠]^(٣) .

شمائل المتكبرين

«التكبر يظهر في شمائل الإنسان؛ كصعر وجهه ونظره شزرًا، وإطراق رأسه، وجلوسه، وفي أقواله، حتى في صوته ونغمته، صيغة إيراده

(١) «غذاء الألباب» (٢/ ٢٢٥) .

(٢) رواه مسلم .

(٣) «النهاية في غريب الحديث والأثر» لابن الأثير .

الكلام، ويظهر ذلك في مشيه وتبخره، وقيامه وعوده وحركاته وسكناته وسائر تقلباته .

ومن خصال المتكبرين: أن يحب قيام الناس له^(١)، وأن لا يمشي إلا ومعه أحد يمشي خلفه، وأن لا يزور أحدًا تكبرًا على الناس، ومنها أن يستنكف من جلوس أحد على جانبه أو مشيه معه . . . ، ومنها: أن لا يتعاطى بيده شغلًا في بيته . . . ومنها: أن لا يحمل متاعه من السوق إلى بيته^(٢) .

الاستطالة

«استطال عليه قهره وغلبه، وتناول عليه كذلك، ومدار الباب على الزيادة»^(٣) .

مادة طُول، يقال: شيء طويل ومستطيل، وطاولني فطلتته، وتناول: تمدد قائمًا لينظر إلى بعيد . . .

وهو يتناول على الناس ويستطيل، وله عليهم تناول واستطالة^(٤) .
والاستطالة: إظهار الطول، فمن أظهر ذلك من غير طول فهو منسلخ عن الإنسانية، ومن أظهر ذلك مع الطول فقد ضيع طوله^(٥) .

(١) انظر تفاصيل المسألة وتفصيل ما يكون من القيام محرماً أو مكروهاً وما يكون مباحاً في «مختصر منهاج القاصدين» (٢٣٠) و«شرح النووي على صحيح مسلم» .

(٢) «مختصر منهاج القاصدين» (٢٣٠ - ٢٣١) باختصار وتصرف .

(٣) «المصباح المنير» (١٤٥) .

(٤) أساس البلاغة - للزمخشري (٢٨٧) .

(٥) «الذريعة إلى مكارم الشريعة» (٣٠٢) .

الصلف

الصَّلْفُ: «مُجاوِزة القَدْرِ في الظَّرْفِ والبراعةِ، والادعاء فوق ذلك تكبرًا. صَلِفَ صَلِيفًا، فهو صَلِيفٌ من قومِ صِلَافِي، وقد تَصَلَّفَ، والأنثى صَلِيفَةٌ...»

والصَّلْفُ: هو العُلُوُّ في الظَّرْفِ، والزيادة على المقدار مع تَكَبُّرٍ^(١).
«والصلف يقال اعتبارًا بميلٍ في عنقه»^(٢).

الصعر

«الصَّعَرُ: ميلٌ في الوجه، وقيل: الصَّعَرُ الميل في الخَدِّ خاصَّةً...»
وقيل: هو ميلٌ في العنق وانقلابٌ في الوجه إلى أحد الشقين.
وقد صَعَرَ خَدَّهُ وصَاعَرَهُ: أماله من الكِبَرِ.
قال الشاعر المُتَمَلِّسُ:

وكنا إذا الجبازُ صَعَرَ خَدَه أقمنا له مِن دَرِيهِ فتقوما.

يقول: إذا أمال مُتَكَبِّرٌ خَدَه أذللناه حتى يتقوم مِيلَه.

وقيل: الصَّعَرُ: داءٌ يأخذ البعير فيلوي منه عنقه ويميله.

(١) «لسان العرب» (٤/٢٤٨٣).

(٢) «الذريعة إلى مكارم الشريعة» (٣٠٢).

والصَّعْرُ: التكبر، والتصعير: إمالة الخد عن النظر إلى الناس تهاوناً من كبر كأنه مُعرض^(١).

وفي التنزيل: ﴿وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ﴾ [لقمان: ١٨].

وقرئ: ولا تُصاعِرْ، قال الفراء: معناهما: الإعراض من الكبر.

وقال أبو إسحاق: معناه لا تُعرض عن الناس تكبراً^(٢).

الباء

وفي «لسان العرب» في مادة «بأي»: «البأواء، يُمدُّ ويُفَصِّرُ وهي العظمة، والبأو مثله. وبأي عليهم بياى بأوا: فخر.

والبأو: الكبر والفخر، وبأيت عليهم أبأي بآيا: فخرت عليهم.

وبأي نفسه: رفعها وفخر بها^(٣).

الخيلاء

«الخال، والخييل، والخيلاء، والخيلاء، والأخييل، والخييلة، والمخييلة، كُله: الكبر.

وقد اختال وهو ذو خيلاء، وذو خال وذو مخييلة أي: ذو كبر».

(١) «لسان العرب» (٢٤٤٨/٤).

(٢) «لسان العرب» (٢٤٤٨/٤). وانظر: «الذريعة إلى مكارم الشريعة» (٣٠٢).

(٣) «لسان العرب» (٢٠٢/١).

«وسميت الخَيْلُ خَيْلاً ؛ لا خَيْالها وهو إعجابها بنفسها مَرَحًا ، ومنه يقال اختال الرجل وبه خِيلاء هو الكبر والإعجاب»^(١).

وفي التنزيل العزيز: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ﴾ [لقمان: ١٨].
فالمختال: المُتَكَبِّرُ^(٢).

قال أبو إسحاق: المختال؛ الصِّلْفُ المتباهي الجهول؛ الذي يأنف من ذوي قرابته إذا كانوا فقراء، ومن جيرانه إذا كانوا كذلك، ولا يُحسن عشرتهم».

وفي «لسان العرب»: «الخِيلاءُ والخِيلاءُ بالضم والكسر: الكبرُ والعُجْبُ»^(٣).

وعرفها الراغب في الذريعة إلى مكارم الشريعة فقال: «الخِيلاءُ: أن يظن بنفسه ما ليس فيها من قولهم خَلْتُ، ولتصور المعنى قال حكيمٌ: إعجابُ المرء بنفسه أن يظن بها ما ليس فيها مع ضعف قوة، فيظهرُ فرحه بها»^(٤).

الزهو

«الزهو: الكِبَرُ والتَّيُّهُ والفَخْرُ والعَظَمَةُ... ورجلٌ مزهو بنفسه؛ أي مُعَجَّبٌ».

(١) «المصباح المنير» (٧١).

(٢) «لسان العرب» (٢/١٣٠٥).

(٣) «لسان العرب» (٢/١٣٠٥).

(٤) «الذريعة إلى مكارم الشريعة» (٣٠٢).

وبفلانٍ زهو: أي كبر، ولا يقال زها .
 وزهي فلانٌ فهو مزهوٌ: إذا أُعجب بنفسه وتكبر .
 والزَّهو: الكذب والباطل، والزَّهو: الكبر، والزَّهو: الظلم، والزهو:
 الاستخفاف»^(١).

وقال الراغب: «الزهو: هو الاستخفاف من الفرح بنفسه»^(٢).
 ومن الشعر:

قال الأحمر النحوي يهجو العتبي، والفيض بن عبد الحميد:
 لنا صاحبٌ مولعٌ بالخِلافِ كثيرُ الخطاء قليلُ الصَّوابِ
 ألجُ لجاجًا من الخُنْفُساءِ وأزهى إذا ما مشى من غراب^(٣)

العزة

«عَزَزْتُ الْقَوْمَ وَأَعَزَّزْتُهُمْ وَعَزَّزْتُهُمْ قَوِيَّتَهُمْ وَشَدَّدْتَهُمْ .
 وقال ثعلب: في الكلام الفصيح: إذا عَزَّ أَخوكَ فَهَنْ . . . وهو مثلُ معناه
 إذا تَعَزَّمْ أَخوكَ شامخًا عليك فالتزم له الهَوَانُ .
 قال الأزهري: المعنى؛ إذا غَلَبَكَ وَقَهَرَكَ ولم تُقاومه فتواضع له . . .

(١) «لسان العرب» (٣/١٨٨٢).

(٢) الذريعة إلى مكارم الشريعة.

(٣) «لسان العرب» (٣/١٨٨٢).

وَعَزَّهُ يُعْزُّ عَزًّا: قهره وغلبه . . وفي التنزيل: ﴿وَعَزَّنِي فِي الْخِطَابِ﴾ [ص: ٢٣]
أي: غلبني في الاحتجاج.

وفي المثل: من عَزَّ بَرًّا، أي من غَلَبَ سَلَبَ، والاسم العِزَّةُ وهي القُوَّةُ
والغَلْبَةُ.

والعز؛ عَزَّةٌ: الغَلْبَةُ، وعازني فَعَزَّنِي، أي: غالِبني فَعَلَبْتُهُ . . .»^(١).

والعزِيز: من صفات الله ﷻ وأسمائه الحسنی .

قال الزجاج: هو الممتنع فلا يغلبه شيء .

وقال غيره: هو القوي الغالب كل شيء .

والعزُّ خلاف الذل .

وفي الحديث قال النبي ﷺ لأم المؤمنين عائشة: «هل تدرين لِمَ كان قومك رفعا باب الكعبة؟»^(٢) قالت: لا، قال: تَعَزُّزًا ألا يدخلها إلا من أرادوا؛ أي تكبرًا وتشددًا على الناس وجاء في بعض نسخ مسلم: «تَعَزُّزًا» براء بعد زاي من التعزيز والتوقير .

فإما أن يريد توقيير البيت وتعظيمه، أو تعظيم أنفسهم وتكبرهم على الناس .

والعزُّ في الأصل: القوة والشدة، والغلبة، والعزُّ.

والعزُّ: الرِّفْعَةُ والامتناع .

(١) «لسان العرب» (٤/٢٩٢٨).

(٢) رواه مسلم .

وفي التنزيل العزيز: ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [المنافقون: ٨]؛
أي له العِزَّةُ والغلبة سبحانه .

وفي التنزيل العزيز: ﴿مَنْ كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ [فاطر: ١٠] أي
من كان يريد بعبادته غير الله فإنما العِزَّةُ في الدنيا ﴿فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا﴾ أي:
يجمعها في الدنيا والآخرة بأن يَنْصُرَ في الدنيا وَيُعَلِّبَ .

وقوله تعالى: ﴿فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى
الْكَافِرِينَ﴾ [المائدة: ٥٤] أي: جانبهم غَلِيظٌ على الكافرين لِيُنَّ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ .

وقال الأزهري: يتدللون للمؤمنين وإن كانوا أعزة، ويتعززون على
الكافرين وإن كانوا في شرف الأحسابِ دونهم»^(١) .

قال الراغب: «العِزَّةُ: الترفع بنفسه عما يلحقه غضاضة، وأصلها من
العزاز، وهي الأرض الصلبة والعزاز: حصوله في عِزَارٍ لا يلحقه فيه
غضاضة كالمتظلف في كونه في ظلف من الأرض لا يلحقه فيه مذلة .

والعِزَّةُ: منزلة شريفة وهي نتيجة معرفة الإنسان بقدر نفسه وإكرامها عن
الضراعة للأعراض الدنيوية، كما أن الكبر نتيجة جهل الإنسان بقدر نفسه،
وإنزالها فوق منزلتها . . .

وقال النبي ﷺ: «لا ينبغي للمؤمن أن يذل نفسه»^(٢) .

ولما قلنا: قالوا: التكبر على الأغنياء تواضع تنبيهاً أن هذا التكبر

(١) «لسان العرب» (٤/ ٢٩٢٥ - ٢٩٢٦) .

(٢) أخرجه أحمد والترمذي وابن ماجه وصححه الألباني .

في الحقيقة عز النفس .

ولأجل أن هذا التكبر غير مذموم قال تعالى : ﴿ يَتَكَبَّرُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ ﴾ [الأعراف: ١٤٦] . فشرط غير الحق .

وقال ابن مسعود رضي الله عنه : «من خضع لغني فوضع نفسه عنده طمعاً فيه ذهب ثلثا مروءته وشطر دينه»^(١) .

من قصص المتكبرين

قصة قوم نوح :

﴿ إِنَّا أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ أَنْ أَنْذِرْ قَوْمَكَ مِن قَبْلِ أَنْ يَأْتِيَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ۝ (١) قَالَ يَقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ۝ (٢) أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَأَتَّقُوهُ وَأَطِيعُوا ۝ (٣) يَغْفِرْ لَكُمْ مِّن ذُنُوبِكُمْ وَيُخْرِجَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ ۝ (٤) قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ۝ (٥) فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَايَ إِلَّا فِرَارًا ۝ (٦) وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصْوَابَهُمْ فِي عَادَانِهِمْ وَأَسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصْرُوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴾ [نوح: ١ - ٧] .

أخبر تعالى أنه أرسله إلى قومه ، رحمة بهم ، وإنذارا لهم من عذاب الله الأليم ، خوفا من استمرارهم على كفرهم ، فيهلكهم الله هلاكا أبديا ، ويعذبهم عذابا سرمديا ، فامثل نوح عليه السلام لذلك ، وابتدر لأمر الله ، فقال : ﴿ يَقَوْمِ إِنِّي لَكُمْ نَذِيرٌ مُّبِينٌ ﴾ [نوح: ٢] أي : واضح النذارة بينها ، وذلك لتوضيحه ما أنذر به وما أنذر عنه ، وبأي : شيء تحصل النجاة ، بين جميع ذلك بيانا

(١) «الذريعة إلى مكارم الشريعة» (٣٠٢ - ٣٠٣) .

شافيا، فأخبرهم وأمرهم بزبدة ما يأمرهم به فقال: ﴿أَنْ أَعْبُدُوا اللَّهَ وَاتَّقُوهُ﴾ [نوح: ٣] وذلك بإفراده تعالى بالتوحيد والعبادة، والبعد عن الشرك وطرقه ووسائله، فإنهم إذا اتقوا الله غفر ذنوبهم، وإذا غفر ذنوبهم حصل لهم النجاة من العذاب، والفوز بالشواب، ﴿وَيُؤَخِّرَكُمْ إِلَىٰ أَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ [نوح: ٤] أي: يمتعكم في هذه الدار، ويدفع عنكم الهلاك إلى أجل مسمى أي: مقدر البقاء في الدنيا بقضاء الله وقدره إلى وقت محدود، وليس المتاع أبدا، فإن الموت لا بد منه، ولهذا قال: ﴿إِنَّ أَجَلَ اللَّهِ إِذَا جَاءَ لَا يُؤَخَّرُ لَوْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [نوح: ٤] لما كفرتم بالله، وعاندتم الحق، فلم يجيبوا لدعوته، ولا انقادوا لأمره، فقال شاكيا لربه ﷻ: ﴿رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَايَ إِلَّا فِرَارًا﴾ أي: نفورا عن الحق وإعراضا، فلم يبق لذلك فائدة، لأن فائدة الدعوة أن يحصل جميع المقصود أو بعضه.

﴿وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ﴾ [نوح: ٧] أي: لأجل أن يستجيبوا فإذا استجابوا غفرت لهم فكان هذا محض مصلحتهم، ولكنهم أبوا إلا تماديا على باطلهم، ونفورا عن الحق، ﴿جَعَلُوا أَصْدِعَهُمْ فِيءًا ذَانِبَهُمْ﴾ حذر سماع ما يقول لهم نبيهم نوح ﷺ، ﴿وَأَسْتَعْشَوْا ثِيَابَهُمْ﴾ أي تغطوا بها غطاء يغشاهم بعدا عن الحق وبغضاله، ﴿وَأَصْرُوا﴾ على كفرهم وشرهم ﴿وَأَسْتَكْبَرُوا﴾ على الحق ﴿أَسْتَكْبَرُوا﴾ فشرهم ازداد، وخيرهم بعد^(١).

قصة فرعون:

﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ قَالُوا مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّفْتَرَىٰ وَمَا سَمِعْنَا

(١) تفسير السعدي.

بِهَذَا فِي ءَابَائِنَا الْأَوَّلِينَ ﴿٣٦﴾ وَقَالَ مُوسَى رَبِّي أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُمْ عَاقِبَةُ الدَّارِ إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ ﴿٣٧﴾ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَا أَيُّهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي فَأَوْقِدْ لِي يَهْمَنُ عَلَى الطِّينِ فَاجْعَل لِي صِرْحًا لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لَأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٣٨﴾ وَأَسْتَكْبِرُ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَظَنُّوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ ﴿٣٩﴾ فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ فَاُنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الظَّالِمِينَ ﴿٤٠﴾ وَجَعَلْنَاهُمْ أَيْمَةً يَدْعُونَ إِلَى التَّكْوِينِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ ﴿٤١﴾ وَأَتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ ﴿٤٢﴾ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَىٰ بَصَائِرَ لِلنَّاسِ وَهُدًى وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٤٣﴾ [القصص: ٣٦-٤٣].

قال السعدي في تفسير قصة فرعون: «ذهب موسى برسالة ربه ﴿فَلَمَّا جَاءَهُمْ مُوسَىٰ بِآيَاتِنَا بَيِّنَاتٍ﴾ واضحات الدلالة على ما قال لهم، ليس فيها قصور ولا خفاء ﴿قَالُوا﴾ على وجه الظلم والعلو والعداوة ﴿مَا هَذَا إِلَّا سِحْرٌ مُفْتَرٍ﴾ كما قال فرعون في تلك الحالة التي ظهر فيها الحق، واستعمل على الباطل، واضمحل الباطل، وخضع له الرؤساء العارفون حقائق الأمور ﴿إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ﴾ هذا، وهو الذكي غير الزكي الذي بلغ من المكر والخداع والكيد ما قصه الله علينا وقد علم ﴿مَا أَنْزَلَ هَؤُلَاءِ إِلَّا رَبُّ السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ ولكن الشقاء غالب.

﴿وَمَا سَمِعْنَا بِهَذَا فِي ءَابَائِنَا الْأَوَّلِينَ﴾ وقد كذبوا في ذلك، فإن الله أرسل يوسف ﴿يُوسُفَ﴾ قبل موسى، كما قال تعالى ﴿وَلَقَدْ جَاءَكُمْ يُوسُفُ مِنْ قَبْلُ بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا زِلْتُمْ فِي شَكِّ مِمَّا جَاءَكُمْ بِهِ حَتَّىٰ إِذَا هَلَكَ قُلْتُمْ لَن يَبْعَثَ اللَّهُ

مِنْ بَعْدِهِ رَسُولًا كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ مَنْ هُوَ مُسْرِفٌ مُرْتَابٌ ﴿١٤٤﴾ .

﴿وَقَالَ مُوسَى﴾ حين زعموا أن الذي جاءهم به سحر وضلال وأن ما هم عليه هو الهدى: ﴿رَبِّيَ أَعْلَمُ بِمَنْ جَاءَ بِالْهُدَىٰ مِنْ عِنْدِهِ وَمَنْ تَكُونُ لَهُ عَاقِبَةُ الدَّارِ﴾ أي: إذا لم تفد المقابلة معكم، وتبيين الآيات البينات، وأبيتم إلا التماذي في غيكم واللجاج على كفركم، فالله تعالى العالم بالمهتدي وغيره، ومن تكون له عاقبة الدار، نحن أم أنتم ﴿إِنَّهُ لَا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ فصار عاقبة الدار لموسى وأتباعه، والفلاح والفوز، وصار لأولئك، الخسار وسوء العاقبة والهلاك.

﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ﴾ متجرئاً على ربه، ومموهاً على قومه السفهاء، أخفاء العقول: ﴿يَتَأْتِيهَا الْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ أي: أنا وحدي، إلهكم ومعبودكم، ولو كان ثم إله غيري، لعلمته، فانظر إلى هذا الورع التام من فرعون!، حيث لم يقل (ما لكم من إله غيري) بل تورع وقال: ﴿مَا عَلِمْتُ لَكُمْ مِنْ إِلَهٍ غَيْرِي﴾ وهذا، لأنه عندهم، العالم الفاضل، الذي مهما قال فهو الحق، ومهما أمر أطاعوه.

فلما قال هذه المقالة، التي قد تحتمل أن ثم إله غيره، أراد أن يحقق النفي، الذي جعل فيه ذلك الاحتمال، فقال ل(هامان) ﴿فَأَوْقَدْ لِي يَنْهَمْنُ عَلَى الطِّينِ﴾ ليجعل له لبنا من فخار. ﴿فَأَجْعَلْ لِي صَرْحًا﴾ أي: بناء ﴿لَعَلِّي أَطَّلِعُ إِلَىٰ إِلَهِ مُوسَىٰ وَإِنِّي لأَظُنُّهُ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ ولكن سنحقق هذا الظن، ونريكم كذب موسى. فانظر هذه الجراءة العظيمة على الله، التي ما بلغها آدمي، كذب موسى، وادعى أنه إله، ونفى أن يكون له علم بالإله الحق، وفعل

الأسباب، ليتوصل إلى إله موسى، وكل هذا ترويح، ولكن العجب من هؤلاء الملاء الذين يزعمون أنهم كبار المملكة، المدبرون لشؤونها، كيف لعب هذا الرجل بعقولهم، واستخف أحلامهم، وهذا لفسقهم الذي صار صفة راسخة فيهم.

فسد دينهم، ثم تبع ذلك فساد عقولهم، فنسألك اللهم الثبات على الإيمان، وأن لا تزيغ قلوبنا بعد إذ هديتنا، وتهب لنا من لدنك رحمة إنك أنت الوهاب.

قال تعالى: ﴿وَأَسْتَكْبِرُ هُوَ وَجُنُودُهُ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ﴾ استكبروا على عباد الله، وساموهم سوء العذاب، واستكبروا على رسل الله، وما جاء وهم به من الآيات، فكذبوها، وزعموا أن ما هم عليه أعلى منها وأفضل.

﴿وَوَظَنُوا أَنَّهُمْ إِلَيْنَا لَا يُرْجَعُونَ﴾ فلذلك تجرأوا، وإلا فلو علموا، أو ظنوا أنهم يرجعون إلى الله، لما كان منهم ما كان.

﴿فَأَخَذْنَاهُ وَجُنُودَهُ﴾ عندما استمر عنادهم وبغيهم ﴿فَنَبَذْنَاهُمْ فِي الْيَمِّ﴾ فأنظر كيف كانت عقبة الظالمين ﴿كانت شر العواقب وأخسرها عاقبة أعقبتها العقوبة الدنيوية المستمرة، المتصلة بالعقوبة الأخروية.

﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَدْعُونَ إِلَى النُّكْرِ وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ (٤١) وأتبعناهم في هذه الدنيا لعنة ويوم القيامة هم من المقبوحين ﴿أي: جعلنا فرعون وملاه من الأئمة الذين يقتدي بهم ويمشي خلفهم إلى دار الخزي والشقاء.

﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ لَا يُنصَرُونَ﴾ من عذاب الله، فهم أضعف شيء، عن دفعه عن أنفسهم، وليس لهم من دون الله، من ولي ولا نصير.

﴿وَاتَّبَعْنَاهُمْ فِي هَذِهِ الدُّنْيَا لَعْنَةً﴾ أي: وأتبعناهم، زيادة في عقوبتهم وخزيهم، في الدنيا لعنة، يلعنون، ولهم عند الخلق الثناء القبيح والمقت والذم، وهذا أمر مشاهد، فهم أئمة الملحونين في الدنيا ومقدمتهم، ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ هُمْ مِنَ الْمَقْبُوحِينَ﴾ المبعدين، المستقذرة أفعالهم. الذين اجتمع عليهم مقت الله، ومقت خلقه، ومقت أنفسهم.

﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ﴾ وهو التوراة ﴿مِنْ بَعْدِ مَا أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ الْأُولَى﴾ الذين كان خاتمهم في الإهلاك العام، فرعون وجنوده. وهذا دليل على أنه بعد نزول التوراة، انقطع الهلاك العام، وشرع جهاد الكفار بالسيف.

﴿بَصَائِرَ لِلنَّاسِ﴾ أي: كتاب الله، الذي أنزله على موسى، فيه بصائر للناس، أي: أمور يبصرون بها ما ينفعهم، وما يضرهم، فتقوم الحجة على العاصي، وينتفع بها المؤمن، فتكون رحمة في حقه، وهداية له إلى الصراط المستقيم، ولهذا قال: ﴿وَهَدَىٰ وَرَحْمَةً لَّعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾.

ولما قص الله على رسوله ما قص من هذه الأخبار الغيبية، نبه العباد على أن هذا خبر إلهي محض، ليس للرسول، طريق إلى علمه إلا من جهة الوحي^(١).

قصة قارون:

﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَىٰ فَبَغَىٰ عَلَيْهِمْ ۖ وَأَيْنَاهُ مِنَ الْكُوفِرِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ

(١) تفسير السعدي.

لَسْنَا بِالْعَصْبَةِ أَوْلَى الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ ﴿٧٦﴾ وَأَبْتَغِ
فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ وَلَا تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا
أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ وَلَا تَبْغِ الْفُسَادَ فِي الْأَرْضِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾ قَالَ إِنَّمَا
أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ
قُوَّةً وَأَكْثَرَ جَمْعًا وَلَا يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ ﴿٧٨﴾ فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي زِينَتِهِ قَالَ
الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَلِيتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ
﴿٧٩﴾ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيَلَكُمْ تَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا وَلَا
يُلْقِيهَا إِلَّا الصَّابِرُونَ ﴿٨٠﴾ فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الْأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ
مِنْ دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَتْ مِنْ الْمُنتَصِرِينَ ﴿٨١﴾ وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ يَقُولُونَ
وَيَكَاتِ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْ لَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ
بِنَا وَيَكَانَهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴿٨٢﴾ تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي
الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُنْقِيبِينَ ﴿٨٣﴾ مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِمَّا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ
فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٨٤﴾ [القصص: ٧٦-٧٩].

قال السعدي في تفسير قصة قارون: «أخبر تعالى عن حالة قارون وما فعل
وفعل به ونصح ووعظ، فقال: ﴿إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى﴾ أي: من
بني إسرائيل، الذين فضلوا على العالمين، وفاقوهم في زمانهم، وامتن الله
عليهم بما امتن به، فكانت حالهم مناسبة للاستقامة، ولكن قارون هذا،
بغى على قومه وطغى، بما أوتيته من الأموال العظيمة المطغية ﴿وَأَيَّنْتَهُ مِنْ
الْكُنُوزِ﴾ أي: كنوز الأموال شيئًا كثيرًا، ﴿مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَسُنُوءًا بِالْعَصْبَةِ أَوْلَى
الْقُوَّةِ﴾ والعصبة من العشرة إلى التسعة إلى السبعة، ونحو ذلك. أي: حتى
أن مفاتيح خزائن أمواله لتثقل الجماعة القوية عن حملها، هذه المفاتيح، فما

ظنك بالخزائن؟ ﴿إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ﴾ ناصحين له محذرين له عن الطغيان: ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾ أي: لا تفرح بهذه الدنيا العظيمة، وتفتخر بها، وتلهيك عن الآخرة، فإن الله لا يحب الفرحين بها، المنكبين على محبتها.

﴿وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الْآخِرَةَ﴾ أي: قد حصل عندك من وسائل الآخرة ما ليس عند غيرك من الأموال، فابتغ بها ما عند الله، وتصدق ولا تقتصر على مجرد نيل الشهوات، وتحصيل اللذات، ﴿وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا﴾ أي: لا نأمرك أن تتصدق بجميع مالك وتبقى ضائعاً، بل أنفق لآخرتك، واستمتع بدنياك استمتاعاً لا يثلم دينك، ولا يضر بآخرتك، ﴿وَأَحْسِنْ﴾ إلى عباد الله ﴿كَمَا أَحْسَنَ اللَّهُ إِلَيْكَ﴾ بهذه الأموال، ﴿وَلَا تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الْأَرْضِ﴾ بالتكبر والعمل بمعاصي الله والاشتغال بالنعم عن المنعم ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ﴾ بل يعاقبهم على ذلك، أشد العقوبة.

ف﴿قَالَ﴾ قارون- رادا لنصيحتهم، كافرا بنعمة ربه-: ﴿إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَىٰ عِلْمٍ عِنْدِي﴾.

أي: إنما أدركت هذه الأموال بكسبي ومعرفتي بوجوه المكاسب، وحذقي، أو على علم من الله بحالي، يعلم أنني أهل لذلك، فلم تنصحوني على ما أعطاني الله تعالى؟ قال تعالى مبينا أن عطاءه، ليس دليلاً على حسن حالة المعطي: ﴿أَوَلَمْ يَعْلَم أَنَّ اللَّهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعًا﴾ فما المانع من إهلاك قارون، مع مضي عادتنا وستتنا بإهلاك من هو مثله وأعظم، إذ فعل ما يوجب الهلاك؟.

﴿وَلَا يُسْئَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ﴾ بل يعاقبهم الله ، ويعذبهم على ما يعلمه منهم ، فهم ، وإن أثبتوا لأنفسهم حالة حسنة ، وشهدوا لها بالنجاة ، فليس قولهم مقبولا وليس ذلك دافعا عنهم من العذاب شيئا ، لأن ذنوبهم غير خفية ، فإنكارهم لا محل له ، فلم يزل قارون مستمرا على عناده وبغيه ، وعدم قبول نصيحة قومه ، فرحا بطرا قد أعجبته نفسه ، وغره ما أوتيته من الأموال .

﴿فَخَرَجَ﴾ ذات يوم ﴿فِي زِينَتِهِ﴾ أي : بحالة أرفع ما يكون من أحوال دنياه ، قد كان له من الأموال ما كان ، وقد استعد وتجمل بأعظم ما يمكنه ، وتلك الزينة في العادة من مثله تكون هائلة ، جمعت زينة الدنيا وزهرتها وبهجتها وغضارتها وفخرها ، فرمقته في تلك الحالة العيون ، وملاأت بزته القلوب ، واختلبت زينته النفوس ، فانقسم فيه الناظرون قسمين ، كل تكلم بحسب ما عنده من الهمة والرغبة .

﴿قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ أي : الذين تعلقوا بإرادتهم فيها ، وصارت منتهى رغبتهم ، ليس لهم إرادة في سواها ، ﴿يَلَيَّتْ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ﴾ من الدنيا ومتاعها وزهرتها ﴿إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ وصدقوا إنه لذو حظ عظيم ، لو كان الأمر منتهيا إلى رغباتهم ، وأنه ليس وراء الدنيا ، دار أخرى ، فإنه قد أعطي منها ما به غاية التنعم بنعيم الدنيا ، واقتدر بذلك على جميع مطالبه ، فصار هذا الحظ العظيم بحسب همتهم ، وإن همة جعلت هذا غاية مرادها ومنتهى مطلبها ، لمن أدنى الهمم وأسفلها وأدناها ، وليس لها أدنى صعود إلى المرادات العالية والمطالب الغالية .

﴿وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ الذين عرفوا حقائق الأشياء، ونظروا إلى باطن الدنيا، حين نظر أولئك إلى ظاهرها: ﴿وَيَلِكُمْ﴾ متوجعين مما تمنوا لأنفسهم، راثين لحالهم، منكرين لمقالهم: ﴿ثَوَابُ اللَّهِ﴾ العاجل، من لذة العبادة ومحبة، والإنابة إليه، والإقبال عليه والآجل من الجنة وما فيها، مما تشتهيهِ الأنفس وتلذ الأعين ﴿حَيْرٌ﴾ من هذا الذي تمنيتم ورغبتم فيه، فهذه حقيقة الأمر، ولكن ما كل من يعلم ذلك يؤثر الأعلى على الأدنى، فما يلقي ذلك ويوفق له ﴿إِلَّا الضَّالُّونَ﴾ الذين حسبوا أنفسهم على طاعة الله، وعن معصيته، وعلى أقداره المؤلمة، وصبروا على جواذب الدنيا وشهواتها، أن تشغلهم عن ربهم، وأن تحول بينهم وبين ما خلقوا له، فهؤلاء الذين يؤثرون ثواب الله على الدنيا الفانية.

فلما انتهت بقارون حالة البغي والفخر، وازينت الدنيا عنده، وكثر بها إعجابه، بغته العذاب ﴿فَحَسَفْنَا بِهِءِ وَيَدَارِهِ الْأَرْضَ﴾ جزاء من جنس عمله، فكما رفع نفسه على عباد الله، أنزله الله أسفل سافلين، هو وما اغتر به، من داره وأثائه، ومتاعه.

﴿فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ﴾ أي: جماعة، وعصبة، وخدم، وجنود ﴿يَنْصُرُونَهُ﴾ من دُونِ اللَّهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنتَصِرِينَ﴾ أي: جاءه العذاب، فما نصر ولا انتصر. ﴿وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالْأَمْسِ﴾ أي: الذين يريدون الحياة الدنيا، الذين قالوا: ﴿يَلَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ﴾ ﴿يَقُولُونَ﴾ متوجعين ومعتبرين وخائفين من وقوع العذاب بهم: ﴿وَيَكَاثُ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ﴾ أي: يضيق الرزق على من يشاء، فعلمنا حينئذ أن بسطه

لقارون، ليس دليلاً على خير فيه، وأنا غالطون في قولنا: ﴿إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ﴾ و﴿لَوْلَا أَنْ مَنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا﴾ فلم يعاقبنا على ما قلنا، فلولا فضله ومنته ﴿لَخَسَفَ بِنَا﴾ فصار هلاك قارون عقوبة له، وعبرة وموعظة لغيره، حتى إن الذين غبطوه، سمعت كيف ندموا، وتغير فكرهم الأول.

﴿وَيَكَانَ لَهُ لَا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ﴾ أي: لا في الدنيا ولا في الآخرة.

﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُنْقِينَ﴾ (٨٣).

لما ذكر تعالى، قارون وما أوتيته من الدنيا، وما صار إليه عاقبة أمره، وأن أهل العلم قالوا: ﴿ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ لِمَنْ ءَامَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا﴾ رغب تعالى في الدار الآخرة، وأخبر بالسبب الموصل إليها فقال: ﴿تِلْكَ الدَّارُ الْآخِرَةُ﴾ التي أخبر الله بها في كتبه وأخبرت بها رسله، التي قد جمعت كل نعيم، واندفع عنها كل مكدر ومنغص، ﴿نَجْعَلُهَا﴾ داراً وقراراً ﴿لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا﴾ أي: ليس لهم إرادة، فكيف العمل للعلو في الأرض على عباد الله، والتكبر عليهم وعلى الحق ﴿وَلَا فَسَادًا﴾ وهذا شامل لجميع المعاصي، فإذا كانوا لا إرادة لهم في العلو في الأرض والفساد، لزم من ذلك، أن تكون إرادتهم مصروفة إلى الله، وقصدتهم الدار الآخرة، وحالهم التواضع لعباد الله، والانقياد للحق والعمل الصالح.

وهؤلاء هم المتقون الذين لهم العاقبة، ولهذا قال ﴿وَالْعَاقِبَةُ﴾ أي حالة الفلاح والنجاح، التي تستقر وتستمر، لمن اتقى الله تعالى، وغيرهم - وإن حصل لهم بعض الظهور والراحة - فإنه لا يطول وقته، ويزول عن قريب.

وعلم من هذا الحصر في الآية الكريمة، أن الذين يريدون العلو في الأرض، أو الفساد، ليس لهم في الدار الآخرة، نصيب، ولا لهم منها نصيب ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ ﴿٨٤﴾ .

يخبر تعالى عن مضاعفة فضله، وتمام عدله فقال: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ﴾ شرط فيها أن يأتي بها العامل، لأنه قد يعملها، ولكن يقترن بها ما لا تقبل منه أو يبطلها، فهذا لم يجيء بالحسنة، والحسنة: اسم جنس يشمل جميع ما أمر الله به ورسوله، من الأقوال والأعمال الظاهرة والباطنة، المتعلقة بحق الله تعالى وحق عباده، ﴿فَلَهُ خَيْرٌ مِنْهَا﴾ أي: أعظم وأجل، وفي الآية الأخرى ﴿فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا﴾ .

هذا التضعيف للحسنة، لا بد منه، وقد يقترن بذلك من الأسباب ما تزيد به المضاعفة، كما قال تعالى: ﴿وَاللَّهُ يُضْعِفُ لِمَنْ يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾ بحسب حال العامل وعمله، ونفعه ومحلّه ومكانه، ﴿وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ﴾ وهي كل ما نهى الشارع عنه، نهى تحريم. ﴿فَلَا يُجْزَى الَّذِينَ عَمِلُوا السَّيِّئَاتِ إِلَّا مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ﴾ كقوله تعالى: ﴿مَنْ جَاءَ بِالْحَسَنَةِ فَلَهُ عَشْرُ أَمْثَالِهَا وَمَنْ جَاءَ بِالسَّيِّئَةِ فَلَا يُجْزَى إِلَّا مِثْلَهَا وَهُمْ لَا يُظْلَمُونَ﴾ ﴿١٦١﴾ .

وأما مصير المتكبرين يوم القيامة، قال ﷺ:

﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِبُهُمْ وَيَقُولُ أَنْ شُرَكَائِي الَّذِينَ كُنْتُمْ تُشْفِقُونَ فِيهِمْ قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ ﴿١٧﴾ الَّذِينَ تَنَفَّهْتُمْ الْمَلَائِكَةُ ظَلَمِي أَنفُسِهِمْ فَأَلْفَوْا سَاءَ مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ بَلَىٰ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ

﴿٢٨﴾ فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَلِيدِينَ فِيهَا فَلْيُسَّ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿[النحل: ٢٧-٢٩].

قال السعدي رحمته الله في تفسيره: ﴿ثُمَّ يَوْمَ الْقِيَامَةِ يُخْزِبُهُمْ﴾ أي: يفضحهم على رءوس الخلائق ويبين لهم كذبهم وافتراءهم على الله.

﴿وَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنْتُمْ تَشْفِقُونَ فِيهِمْ﴾ أي: تحاربون وتعادون الله وحزبه لأجلهم وتزعمون أنهم شركاء لله، فإذا سألهم هذا السؤال لم يكن لهم جواب إلا الإقرار بضلالهم، والاعتراف بعنادهم فيقولون ﴿ضَلُّوا عَنَّا وَشَهِدُوا عَلَيَّ أَنفُسِهِمْ أَنَّهُمْ كَانُوا كَافِرِينَ﴾ ﴿قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ أي: العلماء الربانيون ﴿إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ﴾ أي: يوم القيامة ﴿وَالسُّوءَ﴾ أي: العذاب ﴿عَلَى الْكَافِرِينَ﴾، وفي هذا فضيلة أهل العلم، وأنهم الناطقون بالحق في هذه الدنيا ويوم يقوم الأَشهاد، وأن لقولهم اعتبارا عند الله وعند خلقه، ثم ذكر ما يفعل بهم عند الوفاة وفي القيامة فقال:

﴿الَّذِينَ تَنَفَّوهُمْ الْمَلَكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ﴾ أي: تتوفاهم في هذه الحال التي كثر فيها ظلمهم وغيهم وقد علم ما يلقي الظلمة في ذلك المقام من أنواع العذاب والخزي والإهانة.

﴿فَالْقَوْمَ السَّلَامَ﴾ أي: استسلموا وأنكروا ما كانوا يعبدونهم من دون الله وقالوا: ﴿مَا كُنَّا نَعْمَلُ مِنْ سُوءٍ﴾ فيقال لهم: ﴿بَلَى﴾ كنتم تعملون السوء ف﴿إِنَّ اللَّهَ عَلَيْهِمْ بِمَا كُنْتُمْ تَعْمَلُونَ﴾ فلا يفيدكم الجحود شيئا، وهذا في بعض مواقف القيامة ينكرون ما كانوا عليه في الدنيا ظنا أنه ينفعهم، فإذا شهدت عليهم جوارحهم وتبين ما كانوا عليه أقرؤا واعترفوا، ولهذا لا يدخلون النار حتى يعترفوا بذنوبهم.

﴿فَادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ﴾ كل أهل عمل يدخلون من الباب اللائق بحالهم، ﴿فَلَيْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ نار جهنم فإنها مَثْوَى الحسرة والندم، ومنزل الشقاء والألم ومحل الهموم والغموم، وموضع السخط من الحي القيوم، لا يفتر عنهم من عذابها، ولا يرفع عنهم يوما من أليم عقابها، قد أعرض عنهم الرب الرحيم، وأذاقهم العذاب العظيم.

ومن مصير المتكبرين:

﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُرًّا حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا فَتَحَتْ أَبْوَابُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَذَا قَالُوا بَلَىٰ وَلَكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ ﴿٧١﴾ قِيلَ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبِئْسَ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٢﴾﴾ [الزمر: ٧١-٧٢].

قال السعدي في تفسيره: «لما ذكر تعالى حكمه بين عباده، الذين جمعهم في خلقه ورزقه وتدبيره، واجتماعهم في الدنيا، واجتماعهم في موقف القيامة، فرقهم تعالى عند جزائهم، كما افترقوا في الدنيا بالإيمان والكفر والتقوى والفجور، فقال: ﴿وَسِيقَ الَّذِينَ كَفَرُوا إِلَىٰ جَهَنَّمَ﴾ أي: سوقا عنيفا، يضربون بالسياط الموجهة، من الزبانية الغلاظ الشداد إلى شر محبس وأفطع موضع، وهي جهنم التي قد جمعت كل عذاب، وحضرها كل شقاء، وزال عنها كل سرور، كما قال تعالى: ﴿يَوْمَ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ نَارِ جَهَنَّمَ دَعَا﴾ أي: يدفعون إليها دفعا، وذلك لامتناعهم من دخولها.

ويساقون إليها ﴿زُرًّا﴾ أي: فرقا متفرقة، كل زمرة مع الزمرة التي تناسب عملها، وتشاكل سعيها، يلعن بعضهم بعضا، ويبرأ بعضهم من بعض.

﴿حَتَّىٰ إِذَا جَاءُوهَا﴾ أي: وصلوا إلى ساحتها ﴿فُنِحَتْ﴾ لهم أي: لأجلهم ﴿أَبْوَابَهَا﴾ لقدومهم وقرى لنزولهم.

﴿وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَا﴾ مهئين لهم بالشقاء الأبدى، والعذاب السرمدى، وموبخين لهم على الأعمال التي أوصلتهم إلى هذا المحل الفظيع: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنْكُمْ﴾ أي: من جنسكم تعرفونهم وتعرفون صدقهم، وتتمكنون من التلقي عنهم؟ ﴿يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ آيَاتِ رَبِّكُمُ﴾ التي أرسلهم الله بها، الدالة على الحق اليقين بأوضح البراهين.

﴿وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَاءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا﴾ أي: وهذا يوجب عليكم اتباعهم والحذر من عذاب هذا اليوم، باستعمال تقواه، وقد كانت حالكم بخلاف هذه الحال؟

﴿قَالُوا﴾ مقرين بذنبهم، وأن حجة الله قامت عليهم: ﴿بَلَىٰ﴾ قد جاءتنا رسل ربنا بآياته وبيناته، وبينوا لنا غاية التبيين، وحذرونا من هذا اليوم ﴿وَلَكِنَّ حَقَّتْ كَلِمَةُ الْعَذَابِ عَلَى الْكَافِرِينَ﴾ أي: بسبب كفرهم وجبت عليهم كلمة العذاب، التي هي لكل من كفر بآيات الله، وجحد ما جاءت به المرسلون، فاعترفوا بذنبهم وقيام الحجة عليهم.

﴿قِيلَ﴾ لهم على وجه الإهانة والإذلال: ﴿ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ﴾ كل طائفة تدخل من الباب الذي يناسبها ويوافق عملها. ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ أبداً، لا يظعنون عنها، ولا يفتر عنهم العذاب ساعة ولا ينظرون. ﴿فَيَسَّ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ أي: بس المقر، النار مقرهم، وذلك لأنهم تكبروا على الحق،

فجازاهم الله من جنس عملهم، بالإهانة والذل، والخزي^(١).

ومن مصير المتكبرين:

﴿الَّذِينَ يَجِدُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ أَنْفَ يُصْرَفُونَ﴾ (٦٩) الَّذِينَ كَذَبُوا بِالْكِتَابِ وَمِمَّا أَرْسَلْنَا بِهِ رَسُولَنَا فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٧٠﴾ إِذِ الْأَغْلُلُ فِيَّ اعْتَقَتْهُمْ وَالسَّلْسِلُ يُسْحَبُونَ ﴿٧١﴾ فِي الْحَمِيمِ ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ ﴿٧٢﴾ ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٣﴾ مِنْ دُونِ اللَّهِ قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا بَلْ لَمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا كَذَلِكَ يَضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ ﴿٧٤﴾ ذَلِكَ بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَمِمَّا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ ﴿٧٥﴾ ادْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ خَالِدِينَ فِيهَا فَبئسَ مَثْوًى الْمُتَكَبِّرِينَ ﴿٧٦﴾

[غافر: ٦٩-٧٦].

قال السعدي في تفسير الآيات «﴿الَّذِينَ يَجِدُونَ فِي آيَاتِ اللَّهِ﴾ الواضحة البينة متعجبا من حالهم الشنيعة. ﴿أَنْفَ يُصْرَفُونَ﴾ أي: كيف ينعدلون عنها؟ وإلى أي شيء يذهبون بعد البيان التام؟ هل يجدون آيات بينات تعارض آيات الله؟ لا والله. أم يجدون شيئا توافق أهواءهم، ويصلون بها لأجل باطلهم؟ فبئس ما استبدلوا واختاروا لأنفسهم، بتكذيبهم بالكتاب، الذي جاءهم من الله، وبما أرسل الله به رسوله، الذين هم خير الخلق وأصدقهم، وأعظمهم عقولا فهو لا جزاء لهم سوى النار الحامية، ولهذا توعدهم الله بعذابها فقال: ﴿فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ﴾.

﴿إِذِ الْأَغْلُلُ فِيَّ اعْتَقَتْهُمْ﴾ التي لا يستطيعون معها حركة. ﴿وَالسَّلْسِلُ﴾

التي يقرنون بها، هم وشياطينهم ﴿يُسْحَبُونَ﴾ (٧١) فِي الْحَمِيمِ ﴿٧٢﴾.

(١) تفسير السعدي.

أي: الماء الذي اشتد غليانه وحره. ﴿ثُمَّ فِي النَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ يوقد عليهم اللهب العظيم، فيصلون بها، ثم يوبخون على شركهم وكذبهم.

ويقال ﴿ثُمَّ قِيلَ لَهُمْ أَيْنَ مَا كُنْتُمْ تُشْرِكُونَ ﴿٧٦﴾ مِّنْ دُونِ اللَّهِ﴾ هل نفعوكم، أو دفعوا عنكم بعض العذاب؟. ﴿قَالُوا ضَلُّوا عَنَّا﴾ أي: غابوا ولم يحضروا، ولو حضروا، لم ينفعوا، ثم إنهم أنكروا فقالوا: ﴿بَلْ لَّمْ نَكُنْ نَدْعُوا مِنْ قَبْلُ شَيْئًا﴾ يحتمل أن مرادهم بذلك، الإنكار، وظنوا أنه ينفعهم ويفيدهم، ويحتمل -وهو الأظهر- أن مرادهم بذلك، الإقرار على بطلان إلهية ما كانوا يعبدون، وأنه ليس لله شريك في الحقيقة، وإنما هم ضالون مخطئون، بعبادة معدوم الإلهية، ويدل على هذا قوله تعالى: ﴿كَذَلِكَ يُضِلُّ اللَّهُ الْكَافِرِينَ﴾ أي: كذلك الضلال الذي كانوا عليه في الدنيا، الضلال الواضح لكل أحد، حتى إنهم بأنفسهم، يقرون ببطلانه يوم القيامة، ويتبين لهم معنى قوله تعالى: ﴿وَمَا يَتَّبِعُ الَّذِينَ يَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ شُرَكَاءَ إِنْ يَتَّبِعُونَ إِلَّا الظَّنَّ﴾ ويدل عليه قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ الْقِيَامَةِ يَكْفُرُونَ بِشِرْكِكُمْ﴾ ﴿وَمَنْ أَضَلُّ مِمَّن يَدْعُوا مِنْ دُونِ اللَّهِ مَنْ لَا يَسْتَجِيبُ لَهُ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ﴾ الآيات.

ويقال لأهل النار ﴿ذَلِكَمُ﴾ العذاب، الذي نوع عليكم ﴿بِمَا كُنْتُمْ تَفْرَحُونَ فِي الْأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَمِمَّا كُنْتُمْ تَمْرَحُونَ﴾ أي: تفرحون بالباطل الذي أنتم عليه، وبالعلوم التي خالفتم بها علوم الرسل وتمرحون على عباد الله، بغيا وعدوانا، وظلما، وعصيانا، كما قال تعالى في آخر هذه السورة: ﴿فَلَمَّا جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرِحُوا بِمَا عِنْدَهُمْ مِنَ الْعِلْمِ﴾.

وكما قال قوم قارون له: ﴿لَا تَفْرَحْ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ الْفَرِحِينَ﴾.

وهذا هو الفرح المذموم الموجب للعقاب، بخلاف الفرح الممدوح الذي قال الله فيه: ﴿قُلْ يَفْضَلُ اللَّهُ وَرَحْمَتَهُ فَيَذَلُكَ فَيَفْرَحُوا﴾ وهو الفرح بالعلم النافع، والعمل الصالح.

﴿أَدْخُلُوا أَبْوَابَ جَهَنَّمَ﴾ كل طبقة من طبقاتها، على قدر عمله. ﴿خَالِدِينَ فِيهَا﴾ لا يخرجون منها أبداً ﴿فَيَسَّ مَثْوَى الْمُتَكَبِّرِينَ﴾ مَثْوَى يَخْزُونَ فِيهِ، ويهانون، ويحبسون، ويعذبون، ويترددون بين حرها وزمهريرها^(١).



(١) تفسير السعدي.

أسباب معينة على التخلص من الكبر

- التوبة .
- الدعاء .
- إلزام النفس على التواضع وأطرها عليه .
- إنزال الناس منازلهم وذكر محاسنهم .
- الاعتذار عن المساوىء التي قد تظهر من الناس .
- تذكير النفس بأصلها ومصيرها .
- استحضار النصوص التي تذم الكبر والمتكبرين .
- استحضار النصوص التي تحض على التواضع .
- القراءة في سير العلماء والعباد المتواضعين .
- قراءة قصص المتكبرين والتفكر في عاقبة أمرهم .
(فرعون - هامان - قارون) .
- مرافقة الصالحين من أهل التواضع .
- الاجتهاد في تحصيل العلم النافع ، والعبادة الصحيحة .
- قبول النصيحة وطلبها من الآخرين ممن تعتقد فيهم أنهم يحبون لك الخير .
- التخفف من مظاهر الدنيا وبهرجها .

- القراءة في كتب الزهد والرقائق، والآداب، والأخلاق.
- تفكر في أصل خلقتك وأنت من نطفة من مني يمى.
- تفكر في مصيرك وأنت مأكول من الدود.
- تفكر أنك ستتحول إلى عفونات ورطوبات يشمئز الناس منها.
- تفكر في عظيم الخطر الذي أنت عليه وأنت مرتكبٌ لكبيرة من الكبائر.
- تفكر في آيات وأحاديث الوعيد للمتكبرين.



فهرس المصادر والمراجع

- أدب الدنيا والدين .
- أساس البلاغة .
- الترغيب والترهيب .
- تفسير السعدي .
- تلبس إبلس .
- الذريعة إلى مكارم الشريعة .
- الرعاية .
- الروح - لابن القيم .
- سنن الترمذي .
- سنن النسائي .
- صحيح ابن حبان .
- صحيح البخاري .
- صحيح مسلم .
- صيد الخاطر .
- غذاء الألباب شرح منظومة الأداب .

- لسان العرب .
- مختصر منهاج القاصدين .
- مدارج السالكين .
- مسند أحمد .
- المصباح المنير .
- معجم الطبراني .
- النهاية في غريب الحديث .



فهرس الموضوعات

٤٩ مقدمة
٥٥ تعريف الكبر
٥٦ قالوا عن الكبر
٥٧ أشعار عن الكبر
٥٨ قالوا عن الكبر
٦٠ من شر أنواع الكبر
٦٠ أبعد الناس عن الكبر والعجب
٦١ درجات الكبر
٦١ أقبح الكبر بين البشر
٦٢ الكبر أول ذنب عصي الله ﷻ به
٦٢ ذم الكبر شرعاً وطبعاً
٦٣ التكبر على الله ﷻ
٦٣ التكبر على الله شر من الشرك
٦٣ التكبر على الخلق
٦٦ الأحاديث الواردة في ذم الكبر
٦٩ الفرق بين المهابة والكبر
٦٩ الفرق بين الصيانة والتكبر
٧٠ طرفان ووسط

- ٧١ الكبر يتولد من العجب
- ٧١ العجب يتولد من الجهل
- ٧٢ من علامات الكبر
- ٧٢ التكبر بالعلم
- ٧٣ التكبر بالعبادة
- ٧٤ التكبر بالمال
- ٧٤ التكبر بالنسب
- ٧٥ التكبر بالجمال
- ٧٥ التكبر بالقوة
- ٧٦ التكبر بالعيال
- ٧٦ التكبر بالكثرة
- ٧٦ التكبر بالمناصب
- ٧٧ التكبر بكثرة الأتباع
- ٧٧ التكبر بالعقل والذكاء
- ٧٨ التكبر بالخبرة
- ٧٩ أقسام الكبر
- ٧٩ شمائل المتكبرين
- ٨٠ الاستطالة
- ٨١ الصلف
- ٨١ الصعر

٨٢ الباء
٨٢ الخيلاء
٨٣ الزهو
٨٤ العزة
٨٧ من قصص المتكبرين
١٠٥ أسباب معينة على التخلص من الكبر
١٠٧ فهرس المصادر والمراجع
١٠٩ فهرس الموضوعات



قال ابن القيم رحمه الله: «المهابة أثر من آثار امتلاء القلب بعظمة الله ومحبته وإجلاله، فإذا امتلاء القلب بذلك حل فيه النور، ونزلت عليه السكينة، وألبس رداء الهيبة، فاكتسى وجهه الحلاوة والمهابة، فأخذ بمجامع القلوب محبةً ومهابةً، فحنت إليه الأفتدة، وقرت به العيون، وأنست به القلوب، فكلامه نور، ومدخله نور، ومخرجه نور، وعلمه نور، إن سكت علاه الوقار، وإن تكلم أخذ بالقلوب والأسماع.

أما الكبر: فأثرٌ من آثار العجب والبغي، من قلب قد امتلأ بالجهل والظلم، ترحلت منه العبودية ونزل عليه المقت، فنظره إلى الناس شزر، ومشيه بينهم تبختر، ومعاملته لهم معاملة الاستئثار لا الإيثار ولا الإنصاف، ذاهب بنفسه تيهًا، لا يبدأ من لقيه بالسلام، وإن رد عليه رأى أنه قد بالغ في الإنعام عليه، لا ينطلق لهم وجهه، ولا يسعهم خلقه، ولا يرى لأحد عليه حقًا، ويرى حقوقه على الناس، ولا يرى فضلهم عليه، ويرى فضله عليهم، ولا يزداد من الله إلا بعدًا، ولا من الناس إلا صغارًا وبغضًا». «الروح» لابن القيم.



www.afaak.net

info@afaak.net